

بيت المقدس وفلسطين في التاريخ الإسلامي

بيت المقدس وفلسطين في التاريخ الإسلامي

كان حادث الإسراء والمعراج شرفًا آثر اللَّه به النبي العظيم إلى ذلكم المسجد العظيم ومنه ليرقى إلى ملأ عظيم في ليلة عظيمة . .

ولو لم يحدث في زمن النبوة ما يُشَرِّف هذا المكان إلا ذلكم الحدث لكفاه، فكيف وقد بشر النبي ﷺ بفتح الشام وبيت المقدس؟!

*** تبشير النبي ﷺ بفتح بلاد الشام وبيت المقدس:**

● عن البراء بن عازب ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال: «لما كان حين أمرنا رسول اللَّه ﷺ بحفر الخندق، عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا إلى رسول اللَّه ﷺ فجاءنا فأخذ المعول فقال:

«**بسم اللَّه**»، فضربها ضربة فكسر ثلثها، وقال:

«**اللَّه أكبر أعطيت مفاتيح الشام، واللَّه إني لأبصر قصورها الحمر الساعة**»، ثم ضرب الثانية، فقطع الثلث الآخر فقال:

«**اللَّه أكبر أُعطيت مفاتيح فارس، واللَّه إني لأبصر قصر المدائن أبيض**»، ثم ضرب الثالثة، وقال:

«**بسم اللَّه**»، فقطع بقية الحجر فقال:

«**اللَّه أكبر أُعطيت مفاتيح اليمن، واللَّه إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة**»[1] .

---

(١) حسن: أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٠٣)، والنسائي (٦/ ٤٣ ـ ٤٤)، والبيهقي في =

●وعن عوف بن مالك الأشجعي ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: «أتيت رسول اللَّه ﷺ وهو في بناء له، فسلّمتُ عليه فقال: «عوف؟»، قلت: نعم يا رسول اللَّه! قال: «ادخل».

قلت: كُلّي أم بَعْضي؟ قال: «بل كلك» قال: فقال لي: «**اعدد عوف! ستًّا بين يدي الساعة؛ أولهنّ موتي**».

قال: فاستبكيت حتى جعل رسول اللَّه ﷺ يُسكتني.

قال: «**قل إحدى، والثانية: فتح بيت المقدس، قل: اثنين. والثالثة: فتنة تكون في أمتي ـ وعظّمها ـ والرابعة: موتان يقع في أمتي يأخذهم كقُعاص الغنم. والخامسة: يفيض المال فيكم فيضًا حتى إن الرجل ليعطى المائة دينار فيظل يسخطها، قل: خمسًا. والسادسة: هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر، يسيرون إليكم على ثمانين راية، تحت كل راية اثنا عشر ألفًا، فسطاط المسلمين يومئذ في أرض يُقال لها: الغوطة، فيها مدينة يُقال لها: دمشق**»[1].

●وعن معاذ بن جبل ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: عن النبي ﷺ قال: «**ست من أشراط الساعة: موتي، وفتح بيت المقدس، وموت يأخذ الناس**

= «الدلائل» (٣/ ٤١٧ ـ ٤١٨). ولقد حسّن الحافظ ابن حجر إسناد الحديث في «الفتح» (٧/ ٣٩٧).

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٦)، وأبو داود (٤٢٩٣)، وابن ماجه (٤٠٤٢، ٤٠٩٥)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٢٢، ٢٥، ٢٧)، واللفظ له، والمقدسي في «فضائل بيت المقدس» (٤١)، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٤٢)، والربعي في «فضائل الشام» (٣٠)، والبيهقي في «السنن» (١٠/ ١٥٥، ٩/ ٢٢٣)، وفي «الدلائل» (٦/ ٣٢٠ ـ ٣٢١)، وابن حبان في «الإحسان» (٦٦٤٠).

قُعاص الغنم: داء يأخذ الغنم، لا يُلبثها أن تموت. قاله ابن الأثير.

كقُعاصِ الغنم، وفتنة يدخل حرها بيت كل مسلم، وأن يعطى الرجل ألف دينار فيتسخَّطُها، وأن تغدر الروم فيسيرون في ثمانين بنداً، تحت كل بندٍ اثنا عشر ألفًا» [(١)] .

● وعن سفيان بن أبي زُهير - رضي اللَّه عنه - قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تُفتح اليمن، فيأتي قوم يَبُسُّون [(٢)] فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتُفتح العراق، فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون» [(٣)] .

● وعن أبي أمامة الباهلي - رضي اللَّه عنه - أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن اللَّه استقبل بي الشام، وولّى ظهري اليمن، وقال لي: يا محمد إني جعلت لك ما تجاهك غنيمة ورزقًا، وما خلف ظهرك مدداً، ولا يزال اللَّه يزيد - أو قال يعزّ - الإسلام وأهله، ويُنقص الشرك وأهله، حتى يسير الراكب بين كذا - يعني البحرين - لا يخشى إلا جَوْراً، وليبلغن

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٢٨)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/ ١٢٢)، برقم (٢٤٤، ٣٦٨).

وفيه النهاس بن قهم ضعيف، وأبو عمار شدّاد لم يسمع من معاذ ولكن للحديث شاهد من حديث عوف بن مالك مرفوعًا نحوه.

والحديث صححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٨٨٣).

(٢) يبسون: يسيرون.

(٣) أخرجه البخاري (١١٨٧٥)، ومسلم (١٣٨٨)، ومالك في «الموطأ» (٢/ ٨٨٧ - ٨٨٨)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٢٠)، والطبراني في «الكبير» (من رقم ٦٤٠٧ - ٦٤١٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٩/ ٢٦٥ برقم ١٧١٥٩)، والحميدي (٨٦٥).

هذا الأمر مبلغ الليل»[١] .

* ودعاء النبي ﷺ لأهل الشام بالهداية إلى الإيمان :

وللَّه ما أحلاها دعوة تخرج من أطهر فم رجاءً في هداية أهل هذه الأرض المباركة المقدسة .

● فعن جابر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يومًا ، ونظر إلى الشام فقال : «**اللَّهم أقبل بقلوبهم**» . ونظر إلى العراق ، قال : نحو ذلك ، ونظر مثل ذلك إلى كل الأفق ففعل ذلك ، وقال : «**اللَّهم ارزقنا من ثمرات الأرض، وبارك لنا في مدّنا وصاعنا**»[٢] .

● وعن أنس بن مالك ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : إن النبي ﷺ نظر قِبل العراق والشام واليمن ، فقال : «**اللَّهم أقبل بقلوبهم على طاعتك، وحُطَّ عمن وراءهم**»[٣] .

● وعن زيد بن ثابت ـ رضي اللَّه عنه ـ قال : نظر رسول اللَّه ﷺ قِبل اليمن فقال : «**اللَّهم أقبل بقلوبهم**» ، ونظر قِبل العراق ، فقال :

---

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، والطبراني في «الكبير» (٨/ ١٧٠ ـ ١٧١ رقم ٧٦٤٢).
وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٥)، و«صحيح الجامع» رقم (١٧١٢).

(٢) حسن: أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٤٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٥٧٤ رقم ٤٧٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٣٠٤): رواه أحمد والبزار وإسناده حسن.

(٣) صحيح: أخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٢٧٣ رقم ١٧٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٣٦)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٥٧): رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح غير علي بن بحر بن بري وهو ثقة.

«اللَّهم أقبل بقلوبهم». ونظر قبل الشام، فقال: **«اللَّهم أقبل بقلوبهم، وبارك لنا في صاعنا ومدنا»**[١].

فبشّر النبي ﷺ بفتح الشام وبيت المقدس، ودعا بالهداية لأهلها لما لها من المكانة العظيمة في قلبه لكون تمام ملكه وأمره سيكون بها.

* اهتمام النبي ﷺ بها عملاً بعد تكريمها وتعظيمها معنى:

«بعد أن توطدت دعائم الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة المنورة، وبعد أن تمّ فتح مكة المكرمة، وأعزّ اللَّه دينه فيها، وتمكن المسلمون من رفع راية التوحيد فوق ربوع الكعبة المشرّفة.. تلفتت أنظار النبي ﷺ صوب بيت المقدس في الشام ليطهرها من أدران الشرك الروماني النصراني، كما طهّر مكة من أوضار الشرك العربي الوثني، ولتبدأ بذلك الخطوة الأولى نحو الهدف الكبير، هدف تحرير الأرض المقدسة، وتكسير الآصار التي حلّت بها.

وبدأ الرسول ﷺ بفتح الطريق إلى القدس منذ السنة الخامسة للهجرة، واستمرت غزواته وسراياه إلى هذا الطريق إلى يوم وفاته لسبر غور الروم واستعدادهم، وإيصال الدعوة إلى الشام.

❑ ففي السنة الخامسة من الهجرة كانت غزوة دُومة الجندل، وكان صاحبها أُكيدر بن عبد الملك في طاعة هرقل، وهي في أقصى شمال

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٨٥)، و«فضائل الصحابة» (٢/ ٨٦١ رقم ١٦٠٧)، والترمذي (٣٩٣٠)، والطبراني في «الكبير» (٤٧٨٩، ٤٧٩٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٣٦).

الجزيرة على بُعد ٤٥٠ كيلو شمال تيماء.

❑ وفي السنة السادسة، ندب الرسول ﷺ عبد الرحمن بن عوف في سرية إلى دومة الجندل.

* كتاب النبي ﷺ إلى هرقل وهو في بيت المقدس:

أرسل النبي ﷺ كتابًا إلى هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام، وحمله إليه دحية بن خليفة الكلبي - رضي اللَّه عنه -، فوصل كتاب النبي ﷺ إلى هرقل وهو بالقدس، في الوقت الذي جاء هرقل يحتفل بالنصر على الفرس في سنة ٦٢٨م وهو يوافق تمامًا أواخر السنة السادسة، أو أوائل السنة السابعة هـ.

ولعلّ في اختيار هذا الزمان والمكان لوصول الكتاب إلى هرقل حكمة أيّ حكمة لينبّه هرقل إلى ما وقر في قلبه أنّ ما ناله من النصر لم يكن بقوته، وإنما كان بتدبير من اللَّه فعليه أن يؤمن بما أخبر اللَّه به على لسان عيسى عليه السلام، أنه سيكون نبي يدعو إلى التوحيد، وهو مسطور عند علماء أهل الكتاب ويتوقعون مجيئه، ومن حكمة اختيار المكان المقدس إشارة إلى أن القدس سيكون أحد معاقل التوحيد، وأنه لا بد أن يكون بأيدي المسلمين أصحاب الدين السماوي الذي اشتمل على الرسالات السماوية السابقة كلها وجاء مهيمنًا عليها.

❑ وبعث النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي إلى عظيم بصرى وحاكمها من قِبل الروم «شرحبيل بن عمرو الغسّاني»، ولكنه أوثق المبعوث رباطًا وقتله، ولم يُقتل لرسول اللَّه ﷺ رسولاً غيره.

❑ وفي السنة السابعة: كانت غزوة خيبر؛ لأن يهودها كانوا يهدّدون

الطريق إلى الشام، وفتح مع خيبر، فدك، فوادي القُرى (العلا).

وفي السنة الثامنة كانت سرية كعب بن عُميْر الغفاري إلى ذات أطلاح من ناحية الشام، وفي وادي العربة بفلسطين مكان يُدعى وادي الطلاح فقال الدّباغ: والراجح أنه موقع «ذات أطلاح» الذي استشهد فيه الصحابي كعب بن عُمير.

وفي السنة الثامنة كانت غزوة ذات السلاسل، بقيادة عمرو بن العاص، والسلاسل ماء بأرض جُذام من أقصى الشمال من الجزيرة.

وفي السنة الثامنة كانت سرية زيد بن حارثة إلى جذام بحِسْمى وراء وادي القرى (العلا) مما يلي فلسطين.

* مؤتة في جمادى الأولى ٨ هـ:

بعث النبي ﷺ إلى الشام جيشًا قوامه ثلاثة آلاف رجل فاشتبك مع الروم في مؤتة من أرض البلقاء بالشام. وكان جيش المسلمين يقوده زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد اللَّه ابن رواحة: فلما نزلوا مُعان من أطراف الشام بلغهم أن هرقل قد نزل مآب أمامهم من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وقد انضمت إليه العناصر العربية التي تداهنه من قبائل لخم وجُذام وبلقين وبهراء وبلى من قضاعة في مائة ألف أخرى يقودهم مالك بن رافلة أحد بني إراشة من بِلى. وأقام المسلمون في معان ليلتين يتداولون أمرهم، ثم اختاروا أن يمضوا إلى المعركة ولو كانت غير متكافئة، فإن الرجوع دون معركة كان من شأنه الإبقاء على مسالك الشمال مغلقة أمام المسلمين، أما خوض المعركة ـ مهما كانت نتائجها ـ فمن شأنه أن يغير الموقف. وباب الدعوة

إلي شمال شبة الجزيرة إن كان يصفق بالسيف، فلا بد من فتحه ولو بالسيف.

واستشهد القادة الثلاثة زيد بن حارثة، أحب الناس إلى رسول اللَّه ﷺ، وجعفر الطيار ابن عمه الذي أشبه خلْقه وخُلُقه، وعبد اللَّه ابن رواحة ـ رضي اللَّه عنهم ـ وسالت دماؤهم الطاهرة بالقرب من فلسطين، وآلت القيادة إلى خالد بن الوليد فانسحب بالجيش انسحابًا موفقًا وحمد له النبي ﷺ هذا الصنيع، وقُتل في المعركة مالك بن رافلة قائد العرب الموالين للروم.

فهل هانت دماء الصحابة الأبرار أم هانت فلسطين؟!!.

هي الأرض أمٌّ أو عروس فحسبها ... بفيض دم الأبرار أضحت تُعَطَّرُ

عليها دماء الصِّيدِ سالت زكيّةً ... وفيها ثوى زيد العوالي وجعفرُ

فجُد بالدم الغالي على كلّ ذرّةٍ ... فذوْب دمِ الأحرار مسكٌ وعنبرُ[1]

* تبوك في أول رجب ٩ هـ:

حشدت الروم جيشها للإغارة على دولة الإسلام لتضمن البقاء جاثمة على أرض بيت المقدس ممسكة بزعامة العالم النصراني من هناك، حيث الأرض التي وُلد عليها عيسى عليه السلام ومنها رُفِع، وأعدّ الرومان حشودهم ليعيدوا الكرّة، وليضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة تردّه من حيث جاء، وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها إلى الأرض المقدسة.

(١) من قصيدة «شهيد العلى قد مرّ عبر ترابها» ليوسف العظم من ديوان «الفتية الأبابيل».

واستنفر النبي ﷺ المسلم ... ث العدو، وسار النبي بجيش العسرة ثلاثين ألفًا فيهم عشر... رس واثنى عشر ألف بعير، ولما بلغ الجيش تبوك لم يجد أثرًا للرومان فأقام بضع عشرة ليلة، وجاء ختام الغزوة طمأنينة وعزّة للمسلمين، فأقفل الرسول ﷺ بالجيش عائدًا إلى المدينة . . بعد أن أزال رهبة نزال الروم من قلوب المسلمين، وكسر حاجز الخوف من لقائهم.

*** عقد النبي اللواء لأسامة وهو في مرض الموت، وبعث أسامة بن زيد إلى تخوم (البلقاء والداروم) من أرض فلسطين:**

بعد أن عاد ﷺ من حجّة الوداع إلى المدينة المنورة، أمر المسلمين بالتهيؤ لغزو معاقل الروم في أرض الشام، واختار لإمرة هذا الغزو أسامة بن زيد الحب بن الحب ـ رضي اللَّه عنه ـ، ابن الثمانية عشرة سنة، فأمره ﷺ أن يسير إلى موضع مقتل أبيه زيد بن حارثة ـ رضي اللَّه عنه ـ وأن يوطئ الخيل تخوم (البلقاء والداروم) من أرض فلسطين، وعقد له اللواء بيده في آخر يوم من صفر ١١هـ، وكان ذلك مع مبدء شكواه ﷺ من مرضه الذي توفي فيه، وتجهّز الجيش، وخرج بقيادة أسامة بن زيد إلى ظاهر المدينة فعسكر بالجرف، وفي هذه الأثناء اشتدت وطأة المرض برسول اللَّه ﷺ، وتُوفي وما كُحِّلَتْ عينه ﷺ بفتح بيت المقدس.



عهد الصديق رضي اللَّه عنه

* إنفاذ بعث أسامة بن زيد - رضي اللَّه عنهما -:

أنفذ الصدّيق بعث أسامة وجموع المرتدين تحيط بالمدينة تريد أن تغير عليها، ونُصح الصديق بأن لا يرسل بعث أسامة، وأن يبقيه للدفاع عن المدينة، وأجاب الصديق: «أنا أحبس جيشًا بعثهم رسول اللَّه ﷺ؟! لقد اجترأت على أمر عظيم! والذي نفسي بيده لأن تميل عليّ العرب أحبّ إليّ من أن أحبس جيشًا بعثهم رسول اللَّه ﷺ. امض يا أسامة في جيشك الذي أُمرت به، ثم اغز حيث أمرك رسول اللَّه ﷺ من ناحية فلسطين وعلى أهل مؤتة، فإن اللَّه سيكفي ما تركت»[1].

وسار أسامة يسرع السير على طريق ذي المروة ووادي القرى في اتجاه أبنى وآبل الزيت من نواحي مؤتة وأغار على جذام ولخم وهزم من هناك حتى آبل في إغارة شديدة سريعة وسبى وحرّق بالنار منازلهم وحرثهم ونخلهم حتى صارت أعاصير من الدخان وأجال الخيل في نواحيهم، وقدم المدينة سالمًا غانمًا وقد غاب عنها خمسة وثلاثين يومًا. وأجلى مرتدي قضاعة، وهدد حدود الإمبراطورية الرومية.

وحين بلغ هرقل ما صنع أسامة بعملائه من العرب النازلين بأطراف إمبراطوريته، فدعا بطارقته في حمص وقال لهم: «هذا الذي حذّرتكم فأبيتم أن تقبلوه مني، قد صارت العرب تأتي من مسيرة شهر فتغير عليكم، ثم تخرج من ساعتها ولم تكْلَم»[2].

---

(١) ابن عساكر (١/ ٤٣٣).
(٢) أي: تُجْرح.

* **الصديق يُوَجِّه الجيوش لفتح الشام وجهاد بني الأصفر:**

وفي رجب سنة ١٢ هـ وجّه الصديق الجيوش لفتح بلاد الشام: فوجّه أبا عبيدة عامر بن الجراح إلى حمص، وولاّه إمرة الجيوش، كما أرسل يزيد بن أبي سفيان إلى دمشق، وعمرو بن العاص إلى فلسطين، وشرحبيل بن حسنة لوادي الأردن، وكان عدد هذه الجيوش يقارب الاثنى عشر ألفًا، ثم أسند أبوبكر القيادة العامة لجيش الشام إلى سيف اللَّه المسلول خالد بن الوليد بعد انتهائه من قتال الفرس في العراق.

كتب عمرو بن العاص إلى الصدّيق: «إني سهم من سهام الإسلام، وأنت بعد اللَّه الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلها فارم به شيئًا إن جاءك من ناحية من النواحي».

وكان في جيش عمرو سادات قريش وأشرافها: الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل وفي محرم سنة ١٣هـ جاء الصديق مشيعًا لجيش عمرو، وقال لعمرو: «يا عمرو إنك ذو رأي وتجربة بالأمور وبصر بالحرب، وقد خرجت مع أشراف قومك، ورجال من صلحاء المسلمين، وأنت قادم على إخوانك فلا تألهم نصيحة، ولا تدخر عنهم صالح مشورة، فرب رأي لك محمود في الحرب مبارك في عواقب الأمور».

فقال عمرو: «ما أخلقني أن أصدّق ظنك، وأن لا أقيل رأيك».

وأمر أبو بكر عمرو بن العاص أن يسلك طريق المعرقة إلى أيلة عامدًا إلى فلسطين، وقال أبو عبيدة لعمرو لما أتاه بجيشه: «يا عمرو لرب يوم لك قد شهدته فبورك فيه للمسلمين برأيك ومحضرك».

هذا عمرو بن العاص سيد من سادات الصحابة منّ اللَّه عليه، وعلى يديه فتحت معظم فلسطين.. فهل نسيه أبناء فلسطين؟

قم من ترابك يا ابن العاص في دمنا

ثأر طويل لهيب العار يكوينا

قم يا بلال وأذّن صمتنا عدمٌ

كل الذي كان طُهرًا لم يَعُدْ فينا

* فزع النصارى من الجيوش الإسلامية وبعثهم إلى هرقل ببيت المقدس:

لما رأى أهل الشام أن جيوش المسلمين وأمدادهم تجيش عليهم من كل وجه، وأن جموعهم تكثر وتتزايد، بعثوا رسلهم إلى ملكهم هرقل يعلمونه بما يحدث ويسألونه المدد، وكان هرقل في بيت المقدس يحج، فجمع مجلسه وقال لهم: «أرى من الرأي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن تصالحوهم، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام، وتأخذوا نصفًا وتقرّ لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ويشاركوكم في جبال الروم. فنخر أخوه ونخر ختنه، وتصدّع عنه من كان حوله، فلما رآهم يعصونه ويردون عليه بعث أخاه وأمّر الأمراء ووجّه إلى كل جند جندًا، وكتب لمن أرسل إليه: «إني قد عجبت لكم حين تستمدونني وحين تكثرون عليّ عدد من جاءكم من العرب، وأنا أعلم بهم وبمن جاء منهم، ولأهل مدينة واحدة من مدائنكم أكثر ممن جاءكم أضعافًا مضاعفة، فالقوهم فقاتلوهم، ولا تظنوا أني كتبت إليكم بهذا وأنا أريد ألا أمدكم... لأبعثن إليكم من الجند ما تضيق به الأرض الفضاء!»[1].

---

(١) «الطبري» (٣/ ٤٠٢).

* ما أصدق فراسة الصديق بطرد الروم من بيت المقدس:

أرسل الصديق أبوبكر - رضي اللَّه عنه - إلى أبي عبيدة - رضي اللَّه عنه - في ٢٨ ذي الحجة ١٢ هـ: «بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فقد جاءني كتابك تذكر فيه تيسر عدوكم لمواقعتكم، وما كتب به ملكهم إليهم من عِدتِه إياهم أن يمدّهم من الجنود ما تضيق به الأرض الفضاء.

ولعمرو اللَّه لقد أصبحت الأرض ضيقة عليه وعليهم بُرْحها بمكانكم فيهم.

وايم اللَّه ما أنا بآيس أن تزيلوه من مكانه الذي هو به عاجلاً إن شاء اللَّه، فبث خيلك في القرى والسواد، وضيّق عليهم بقطع الميرة والمادة، ولا تحاصرن المدائن حتى يأتيك أمري. فإن ناهضوك فانهد إليهم واستعن باللَّه عليهم؛ فإنه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناك بمثليهم أو ضعفهم، وليس بكم والحمد للَّه قلة ولا ذلة، فلا أعرفن ما جبنتم عنهم، ولا ما خفتم منهم، فإن اللَّه فاتح لكم ومظهركم على عدوكم بالنصر وملتمس منكم الشكر لينظر كيف تعملون.

وعمرو فأوصيك به خيرًا، وقد أوصيته ألا يضيع حقًّا يراه ويعرفه، فإنه ذو رأي وتجربة. والسلام عليكم ورحمة اللَّه».

* العربة وداثن بغزّة أول معركة للمسلمين على أرض فلسطين ٢٤ ذو الحجة ١٢ هـ:

تضافرت الروايات[1] على أن أول المواقع على أرض الشام بعد

(١) «الأزدي (٥٢)، والطبري (٣/٤٠٦)، والبلاذري (١٣٠).

سرية أسامة كانت وقعة العربة وداثن [أو داثنة] قبل قدوم خالد بن الوليد إلى الشام.

فبعد أن نزل يزيد بالبلقاء، ونزل شرحبيل نواحي بصرى، ونزل أبو عبيدة الجابية كل في جيشه، دفع الروم قوة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل يقودها سرجيوس البطريق الرومي لمدينة غزة.

●عن أبي أمامة الباهلي ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: «كنتُ ممن سَرَّح أبو بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ مع أبي عبيدة في نفر من قومي.. فكانت أول وقعة يوم العربة والداثنة، وليسا من الأيام العظام، فخرجت إلينا ستة قوّاد من الروم مع كل قائد خمسمائة رجل فكانوا ثلاثة آلاف رجل، فأقبلوا حتى انتهوا إلى العربة، فبعث يزيد بن أبي سفيان إلى أبي عبيدة يعلمه بذلك. فبعثني إليه في خمسمائة رجل. فلما أتيته بعث معي رجلاً[١] في خمسمائة رجل، وأقبل يزيد في آثارنا في الصف. فلما رأينا الروم حملنا عليهم فهزمناهم وقتلنا قائدًا من قوّادهم، ثم مضوا وأتبعناهم، فجمعوا لنا بالداثنة[٢] فسرنا إليهم، فقدّمني يزيد وصاحبي في عدتنا فهزمناهم، فعند ذلك فزعوا، واجتمعوا وأمدَّهم ملكهم»[٣].

* أولى المعارك الكبرى بالشام وأول معركة على أرض فلسطين «موقعة أجنادين» السبت ٢٧ جمادي الأولى ١٣هـ:

جمع خالد بن الوليد ـ الذي لا ينام ولا ينيم ـ جيشه وقال:

---

(١)الذي نرجحه أنه كان زمعة بن الأسود قائد مقدمة يزيد.

(٢)من قرى غزة.

(٣)«الطريق إلى دمشق» ص(٢١١).

«أما بعد. فإنه بلغني أن طائفة من الروم نزلوا بأجنادين، وأنهم استعانوا بأناس وهم قليل من أهل البلد فسألوهم النصر علينا استقلالاً لمن معهم من الكثرة ذلاّ ولؤمًا، واللَّه ـ إن شاء اللَّه ـ جاعل الدبرة عليهم وقاتلهم كل مقتلة، فاقصدوا بنا قصدهم».

وكتب خالد إلى أمراء الجيوش بالشام: «بسم الله الرحمن الرحيم.

أما بعد: فإنه نزل بأجنادين جموع من جموع الروم غير ذي عدد ولا قوة، واللَّه قاصمهم وقاطع دابرهم. وجاعل دائرة السوء عليهم. وقد شخصت إليهم يوم سرّحت رسولي إليكم، فإذا قدم عليكم فانهضوا إلى عدوكم رحمكم اللَّه في أحسن عدّتكم وأصحِّ نيتكم. ضاعف اللَّه لكم أجوركم وحطّ أوزاركم. والسلام عليكم ورحمة اللَّه».

وعلى الطريق ما بين بيت جبرين والرملة شهدت أجنادين أحلى الأيام.. تجمّع جمع مبارك من أفذاذ قادة المسلمين ضم كل الجيوش الإسلامية بالشام:

حضر شرحبيل بن حسنة بجيشه، وكان بأرض بصرى، ومعاذ بن جبل بجيشه، وكان بحوران، ويزيد بن أبي سفيان، وكان بالبلقاء، والنعمان بن المغيرة وكان بأرض أركه وتدمر، وعمرو بن العاص، وكان بفلسطين. تجمّع هؤلاء تحت إمرة خالد سيف اللَّه ـ رضي اللَّه عنه ـ.

◘ قال ابن إسحاق: «وكان على الروم رجل منهم يُقال له: القُبقلار استخلفه هرقل على أمراء الشام، وإليه انصرف تذراق بمن معه من الروم، فأما علماء الشام فيزعمون أنما كان على الروم تذراق واللَّه أعلم»[1].

---

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٤١٧).

وكان عـدة الجيش الرومي بما انضم إلـيه من جمـوع أهل فلسطين والأعراب الموالين للـروم تزيد عن مائة ألف. وعدة الجـيش المسلم ثلاثة وثلاثين ألفًا.

قال ابن إسحاق: «لما تدانى العسكران بعث القُبقُلار رجلاً عـربيًّا من قضاعـة، من تزيد بن حيدان يقال له ابن هـزارف، فقال: ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يومًـا وليلة، ثم ائتني بخبرهم فدخل في الناس ـ رجل عربي لا يُنكر فأقام فيـهم يومًا وليلة، ثم أتاه فقال له: ما وراءك؟ قال: بالليل رهبـان وبالنهار فرسان، ولو سـرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رُجِم لإقامة الحق فيهم.

فقـال له القبقلار: لئن كنت صـدقتني لبطن الأرض خيـر من لقاء هؤلاء على ظهرها. ولوددت أن حظي من اللَّه أن يُخلّى بيني وبينهم فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم عليّ»[1].

ويوم المعركة خرج خالد بن الوليد فـصفّ قواته فجعل أبا عبيدة ابن الجراح على المشـاة في القلب، وجعل مـعاذ بن جبل عـلى الميمنة، وجعل سعيـد بن عامر بن حذيم القرشي على الميسـرة، وبعث سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل على الخيل.

للَّه درّ هؤلاء الميامين الذي قادوا أول مـعركة على ثرى فلسطين.. وشرفت بهم:

خالد الذي يعظم ويربو عند القتـال، خالد الذي لا يملأ صدره من الروم شيء كـجرأته وشـدته ونجدته، وأبـو عبـيدة أمين الأمـة في قلب

---

(١) «الطريق إلى دمشق ـ فتح بلاد الشام ـ» لأحمد عادل كمال ص(٢٧٢).

الجيش، وأعلم الأمة بالحلال والحرام معاذ علـى الميمنة، وسعيد بن عامر الزاهد الورع على الميسـرة، والمبشَّر بالجنة سعيـد بن زيد على الخيل، أو هاشم بن عتبة قاتل الأسود على الميسرة.

◻ وأقبل خـالد ـ رضي اللَّه عنه ـ يسير خلال صـفوف المسلمين لا يستقـر في مكان واحد، يحرّض جنده ويحمّسـهم. وأقام نساء المسلمين خلف الجيش يبتهلن إلى اللَّه ويدعونه ويستغثنه، وكلما مرّ بهن رجل من المسلمين دفعن إليه أولادهن، وقلن له: «قاتلوا دون أولادكم ونسائكم»، كما أمرهن خالد أن يَحْتَرِمْن أي يحـرّمن على الرجال ما كان مباحًا لهن معهن فهم الآن في معركة وعدوهم قد صفّ لهم صفوفه.

◻ وأقبل خالد ـ رضي اللَّه عنه ـ يقف على كل قبـيلة وكل جماعة ويقول: «اتقوا اللَّه عباد اللَّه، قـاتلوا في اللَّه من كفر باللَّه، ولا تنكصوا على أعقابكم، ولا تهنوا من عدوكم، ولكن أقـدموا كإقدام الأُسْد وأنتم أحرار كرام. فـقد أبيتم الدنيـا واستوجبـتم على اللَّه ثواب الآخرة. ولا يهلوكم ما ترون من كـثرتهم، فإن اللَّه منزل عليهم رجـزه وعقابه». ثم قال: «أيهـا الناس إذا أنا حملت فـاحملوا»، وكان خـالد أول من حمل على صفوف الروم.

وقام الصحابي الجليل معـاذ بن جبل ـ رضي اللَّه عنه ـ قائد الميمنة في أصحابه فقال: «يا معشر المسلمين اشروا أنفسكم اليوم للَّه، فإنكم إن هزمتموهم اليوم كـانت لكم هذه البلاد دار الإسلام أبدًا مع رضوان اللَّه والثواب العظيم من اللَّه».

وكان من رأي خالد ـ رضي اللَّه عنه ـ أن يُؤخر القتال حتى يصلوا الظهر وتهب الرياح، وهي الساعة التي كـان رسول اللَّه ﷺ يستحب

القتال فيها. ولو وقف موقف الدفاع حتى تحين هذه الساعة.

وأعجبت الروم كثرتهم فبدأوا الهجوم على الميمنة حيث كان معاذ ابن جبل ـ رضي اللَّه عنه ـ فصمد المسلمون ولم يتزحزح أحد، فعادوا فشنّوا هجومًا آخر على الميسرة حيث كان سعيد بن عامر فصمد لهم المسلمون أيضًا... فرمى الروم المسلمين بالنشاب وخالد ـ رضي اللَّه عنه ـ لا يريد أن يهاجمهم حتى ناداه سعيد بن زيد، وكان من أشد الناس، وهو قائد سلاح الفرسان يومئذٍ، فصاح بخالد قائلاً: «عَلام نستهدف لهؤلاء الأعلاج وقد رشقونا بالنشاب حتى شمست[1] الخيل؟».

فأقبل خالد ـ رضي اللَّه عنه ـ إلى خيل المسلمين، وقال لهم: «احملوا ـ رحمكم اللَّه ـ على اسم اللَّه»، وحمل خالد على الروم وحمل المسلمون معه بأجمعهم على طول الصف، فقد سئموا الوقوف، وكانت معنوياتهم مرتفعة وصبروا مختارين لهجوم الروم عليهم مرتين... على ميمنتهم مرة، ثم على ميسرتهم، ثم صبروا لرشق نبالهم، والآن صدر الأمر فانطلق الجيش المتحمِّس المكبوت فما صبر الروم لهم فَوَاقًا[2] على حد تعبير الرواة، وانهزموا هزيمة شديدة وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا وأصابوا معسكرهم وما حوى.

وفي رواية الطبري عن ابن إسحاق: «... فلما رأى القبقلار [قائد الروم] ما رأى من قتال المسلمين قال للروم: لفّوا رأسي بثوب. قالوا: لِمَ؟ قال: يوم البئيس لا أحب أن أراه ما رأيت في الدنيا يومًا أشدّ من

---

(١) شمست الخيل: امتنعت ظهورها عن الركوب.

(٢) الفواق ما بين الحلبتين من الوقت. وقيل ما بين فتح يد الحالب وقبضها على الضرع، والمراد: الزمن القصير.

هذا. فاحتز المسلمون رأسه، وإنه لملفف». وانتهى خبر الهزيمة إلى هرقل فنُخِب في قلبه، وأسقط في يده وملئ رعبًا.

سلوا قـبـقـلار الـروم لِم لَفّ وجـهـه وحـزّ لـه الأحنـاف رأسًا تـنـدّرُ

وكتب خالد إلى أبي بكر:

«بسم الله الرحمن الرحيم

لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين.

أما بعد:

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد، فإني أخبرك أيها الصدّيق أنا التقينا نحن والمشركون، وقد جمعوا لنا جموعًا جمّة كثيرة بأجنادين، وقد رفعوا صُلُبَهم ونشروا كتبهم وتقاسموا بالله لا يفرّون حتى يفنون، أو يخرجونا من بلادهم. فخرجنا إليهم واثقين بالله متوكلين على الله، فطاعنّاهم بالرماح، ثم صرنا إلى السيوف، فقارعناهم في كل فجّ وشِعْب وغائط. فأحمد الله على إعزاز دينه، وإذلال عدوّه وحسن الصنع لأوليائه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ولما قرأ الكتاب أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فرح به وأعجبه، وقال: «الحمد لله الذي نصر المسلمين وأقرّ عيني بذلك».



* فتح غزة على يد عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أيام الصديق - رضي الله عنه -:

☐ وتمخّضت ملاحم النصر عن فتح عدة مدن بفلسطين منها نابلس وعسقلان والرملة وعكا واللد.

وفتح عمرو بن العاص مدنًا أخرى منها يافا ورفح.

«وجاء في فتوح البلدان أن عمرو بن العاص قد فتح غزة في عهد أبي بكر»[1].

«وبهذا مهّدت الجيوش الإسلامية في خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - الطريق للزحف نحو بيت المقدس»[2].

[وتم لعمرو بن العاص - رضي الله عنه - فتح كل مدن فلسطين وأشهرها غزة، و«سبسطية» و«نابلس»، و«اللدّ» و«يبنى» و«عمواس» و«بيت جبرين» و«يافا» و«رفح»][3].

ولم تبق هناك إلا «قيسارية» فتحها معاوية كما سيأتي.



(١) «الطريق إلى دمشق» ص(٥١٥).

(٢) «قبل أن يهدم الأقصى» ص(٨٤ ـ ٨٥).

(٣) «عمرو بن العاص» لبسام العسلي ص(٣٥ ـ ٣٦) ـ دار النفائس.

في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -

* «رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب» . . .

خدعة عمرو . . . لله درّ عمرو!

حادثة أرطبون الروم مع عمرو ذكر الرواة أنها كانت في أجنادين. . . وممن ذهب إلى هذا الأستاذ بسّام العسلي في كتابه «عمرو ابن العاص» ص(٣٢ ـ ٣٣)، وذهب الأستاذ أحمد عادل كمال في كتابه «الطريق إلى دمشق» ص(٥٢٤) إلى أن ذلك في حصار بيت المقدس.

«كان الروم في حصونهم وخنادقهم وعليهم أرطبون، وكان أدهى الروم، وأبعدهم غورًا وأنكاهم فعلاً، وأقام عمرو لا يقدر من أرطبون على سقطة، ولا تشفيه الرسل، فوَلِي الأمر بنفسه، ودخل على أرطبون كأنه رسول من قبل «عمرو» فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمّل حصونه حتى عرف ما أراد.

وشعر أرطبون بألمعية عمرو، وهو لا يعرفه، فقال في نفسه: إن هذا لعمرو، أو إنه الذي يأخذ عمرو برأيه، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله، ثم دعا واحدًا من حرسه وأسرّ إليه بقتله، قال: اخرج فقم مكان كذا وكذا، فإذا مرّ بك فاقتله. وفَطِن عمرو لما يُدَبَّرُ له.

قال عمرو: قد سمعت مني وسمعتُ منك، فأمّا ما قلته فقد وقع مني موقعًا، وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه[1] ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا في الذي

---

(١) نكانفه، أي: نعاونه.

عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم، وكنت على رأس أمرك. فقال أرطبون: نعم. ودعا رجلاً فأسرّ إليه، وقال: اذهب إلى فلان فردّه إليّ. فرجع إليه الرجل، وقال لعمرو: انطلق فجئ بأصحابك، فخرج عمرو وقال: لا أعود لمثلها أبدًا. وعلم أرطبون أن عمرو بن العاص قد خدعه، فقال: «خدعني الرجل! هذا أدهى الخلق». وبلغت عمر بن الخطاب، فقال: غلبه عمرو، للّه عمرو![1].

وعند الطبري: «قال عمر: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عما تنفرج».

وكان عمرو كثيرًا ما يردد بعد ذلك: «لا والذي نجّاني من أرطبون».

* **مِن أرطبون إلى عمرو ـ رضي اللّه عنه ـ:**

«ما إن استقرّ أرطبون في «إيلياء» حتى كتب إلى عمرو ـ رضي اللّه عنه ـ بأجنادين رسالة جاء فيها:

«إنك صديقي ونظيري؛ أنت في قومك مثلي في قومي، وواللّه لا تفتتح من فلسطين شيئًا بعد أجنادين؛ فارجع ولا تَغز فتلقى ما لقي الذين من قبلك من الهزيمة».

◻ وأجابه عمرو ـ رضي اللّه عنه ـ:

«جاءني كتابك، وأنت نظيري ومثلي في قومك، لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد،

---

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٦٠٥)، و«الطريق إلى دمشق» ص(٥٢٤).

وأستعدي عليك فلانا وفلانًا وفـلانًا ـ لوزرائه ـ فأقرئهم كتابي، ولينظروا فيما بيني وبينك»[١] .

*** عمرو ـ رضي اللَّه عنه ـ وفلسطين:**

بعـد مرج الصـفـر أمر أبو عـبـيدة عَـمْـرًا بأن يسيـر إلى الأردن وفلسطين، وأن يغيـر على أطراف الرساتيق «القرى» بالخـيل ويصالح مَنْ يُصالح، ونهاهُ عن أن يقدم على المدن والحصون والجموع، ولمّا بلغ عمرو أرض الأردن وفلسطين أقـام على أهلهـما القـيامـة وضـيّق عليهم أشـد التـضـيـيق، فرعـب الروم وأشفـقوا على مـدائنهم أن تسـقط في أيدي المسلمين، فاجتمع مَن كـان بها من الروم، ونزلوا من حصونهم، وانضم إليهم كثـير من الأهالي ومن نصارى العرب فكثـر جمعهم، وكـتبوا إلى هرقل وهو بأنطاكيـة يطلبون منه المدد، فـبعث إلى ذلك الجيش العـشرة آلاف الذين ببعلبك أن يسيروا إليه» .

وكتب عمرو بن العاص إلى أبي عُبيدة:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد:

فإن الروم قـد أعظمت فـتح دمشق واجـتمعـوا من نواحي الأردن وفلسطين فتكاتبوا وتواثقوا وتعاهدوا ألا يرجعوا إلى النساء والأولاد حتى يخرجوا العرب من بلادهم، واللَّه مكذب قولهم وأملهم ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيـلاً. فاكتب إليّ برأيك في هذا الحدث، أرشد اللَّه أمرك وسدّدك وأدام رشدك، والسلام عليك ورحمة اللَّه وبركاته» .

---

(١) «سلسلة مشاهير قادة الإسلام ـ عمرو بن العاص ـ» لبسام العسلي ص(٣٤).

فأرسل إليه أبو عبيدة مدداً من ٢٨٠٠ رجل فصارت عدة جيش المسلمين ٥٣٠٠ عليهم عمرو بن العاص.

ولما نفر الروم إلى المسلمين براً وبحراً، وجيّش هرقل جيوشه من أنطاكية قُبيل موقعة اليرموك بقليل جرّأ ذلك أهل إيلياء والأردن على عمرو وعلى من قِبله من المسلمين، وتراسلوا وتواثقوا وتعاقدوا ليسيرون إلى عمرو، فقام عمرو في جيشه، وقال: «لا يبقين رجل من أهل عهدنا إلا وتهيأ واستعد حتى يسير معي إلى أهل إيلياء؛ فإني أريد المسير إليهم والنزول بساحتهم، ثم لا أزايلهم[1] حتى أقتل مقاتلتهم وأسبي ذراريهم، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون».

وأسقط في أيدي أهل إيلياء وكانوا من ذلك في هول شديد.

* **إنذار من عمرو إلى أهل إيلياء: ... لله در عمرو:**

أرسل عمرو بن العاص إلى بطارقة إيلياء:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

من عمرو بن العاص إلى بطارقة إيلياء. سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله العظيم الذي لا إله إلا هو، ومحمد ﷺ، أما بعد فإنا نثني على ربنا خيراً، ونحمده حمداً كثيراً كما رحمنا بنبيه، وشرّفنا برسالته وأكرمنا بدينه، وأعزّنا بطاعته، وأكرمنا بتوحيده والإخلاص بمعرفته، فلسنا ـ والحمد لله ـ نجعل له نداً ولا نتخذ من دونه إلهاً، لقد قلنا إذن شططاً، سبحانه وبحمده جلّ ثناؤه.

والحمد لله الذي جعلكم شيعاً، وجعلكم في دينكم أحزاباً بكفركم

(١) أي: لا أفارقهم.

بربكم فكل حزب بما لديهم فرحون، فمنكم من يزعم أن للَّه ولدًا، ومنكم من يزعم أن اللَّه ثاني اثنين، ومنكم من يزعم أن اللَّه ثالث ثلاثة فبُعدًا لمن أشرك باللَّه وسُحقًا، وتعالى اللَّه عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا. والحمد للَّه الذي قتل بطارقتكم، وسلب عزكم، وطرد من هذه البلاد ملوككم، وأورثنا أرضكم ودياركم وأموالكم وأذلكم بكفركم باللَّه وترككم ما دعوناكم إليه من الإيمان باللَّه ورسوله، فأعقبكم اللَّه الجوع والخوف والذل بما كنتم تصنعون. فإذا أتاكم كتابي هذا فأسلموا تسلموا، وإلا فأقبلوا إلينا حتى أكتب لكم كتابًا أمانًا على دمائكم وأموالكم وأعقد لكم عقدًا تُؤدن إليّ الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإلا فواللَّه الذي لا إله إلا هو لأرمينكم بالخيل بعد الخيل وبالرجال بعد الرجال، ثم لا أقلع عنكم حتى أقتل المقاتلة وأسبي الذرية، وتكونون كأمّة كانت فأصبحت كأنها لم تكن»[١] .

وهذه لهجة شديدة من عمرو لقوم نقضوا عهودهم، أو هم على وشك الانتقاض، وعلى الطريق إليه جيش لم تجمع الروم مثله من قبل.

وأعطى عمرو الكتاب إلى رجل نصراني على دينهم، وقال له: عجّل عليّ فإني إنما أنتظرك. وقدم عليهم الرجل فقالوا له: ويحك، ما وراءك؟

قال: لا أدري إلا أن الرجل قد بعثني إليكم بهذا الكتاب، وقد وجّه عسكره نحوكم. وقال ما يمنعني من المسير إليهم إلا انتظاري رجوعك.

قالوا له: أنظرنا[٢] ساعة من النهار، فإنا ننتظر عيونًا لنا تقدم علينا

---

(١) «الأزدي» ص(١٦٥).

(٢) أي: أجِّلنا.

من قِبل أميـر العرب الذي بدمشق، ومن قِبل جند المـلك الذي قد أقبل إلينا فننظر ما تأتينـا به، فإن ظننا أن لنا بالعرب قوة لم نصـالحهم، وإن خشينا ألا نقـوى عليهم صنعنا ما صنع أهل الأردن وغيـرهم. فما نحن إلا كغيرنا من أهل الشام.

فأقام الرجل حتى أمسى، وجـاءتهم الأخبار بقدوم باهان في جيش هرقل يقود ثلاثمائة ألف مقاتل لقتال المسلمين، فتباشر أهل إيلياء بذلك، وسرّوا به، ودعـوا العلج الذي بعث به عـمرو بن العاص فـبعـثوا مـعه برسالة إلى عمـرو: «أما بعد، فإنك كـتبت إلينا كتابًا تزكي فـيه نفسك وتعيب ما نحن عليه، والقول بالباطل لا ينفع به أحد نفسه، ولا يضرّ به عـدوه، وقـد فـهمنـا ما دعـوتنا إلـيه، وهؤلاء مـلوكنا وأهل ديننا قـد جاءوكم، فـإن أظهرهم اللَّه عليكم فذلـك بلاؤه عندنا في القديم، وإن ابتلانا بظهوركم علينـا فلعمري لنقرنّ لكم بالصغـار، وما نحن إلا كمن ظهرتم عليهم من إخواننا، ثم دانوا لكم فأعطوكم ما سألتم»[1].

▫ «وكتب عمـرو إلى عمر يستمده، ويقـول له: «إني أعالج حربًا كؤدًا صـدومًا، وبلادًا ادُّخـرت لك، فرأيك». فلما وصـل الكتاب إلى عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ علم أن عمـرًا لم يقل ذلك إلا لأمرٍ علمه، فعزم عمر على الدخول إلى الشام لفتح بيت المقدس»[2].

❊ حصار أمين هذه الأمة ومعه أرطبون العرب لبيت المقدس:

لما فرغ أبو عبيدة من دمـشق كتب إلى أهل إيلياء يدعوهم إلى اللَّه

---

(١) «الطريق إلى دمشق» بتصرف ص(٤٢٣).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٥٦).

وإلى الإسلام، أو يبذلون الجزية، أو يؤذنون بحرب. فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه، وحاصر عمرو بن العاص بيت المقدس، وفرغ أبو عبيدة ابن الجرّاح من تطهير شمال الشام، فولّى عبادة بن الصامت حمص، وسار بجيشه، وحاصر بيت المقدس وضيّق عليهم، وكان أهل بيت المقدس قد طال حصارهم الذي استمر أربعة أشهر، وأدركوا أن لا مفرّ من التسليم، فطلبوا من أبي عبيدة أن يصالحهم على مثل صُلح مدن الشام، وأن يكون المتولي لعقد الصلح عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ـ رضي اللَّه عنه ـ.

* عَوْد على بدء...

وتفصيل لما كان من أمر أبي عبيدة وحصاره للقدس:

وحدثتني عنهم فزدتني جوًى... وهل يُمَلّ حديثهم.. واللَّه إنه لبرءُ أسقامنا ودواء أوصابنا...

كتب أبو عبيدة أمين الأمة إلى أهل إيلياء:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيليا وسكانها.

سلام على من اتبع الهدى وآمن باللَّه تعالى ورسوله.

أما بعد:

فإني أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمدًا رسول اللَّه، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن اللَّه يبعث من في القبور. فإن شهدتم بذلك حُرِّمت علينا دماؤكم وأموالكم وذراريكم وكنتم لنا إخوانا. وإن أبيتم فأقروا لنا بأداء الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإن أنتم أبيتم سرتُ إليكم بقوم هم أشد حبًّا للموت منكم لشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير،

ثم لا أرجع عنكم إن شاء اللَّه أبدًا حتى أقتل مقاتليكم وأسبي ذراريكم».

ثم إن أبا عبيدة بن الجراح انتظر أهل إيليا فأبوا أن يأتوه وأن يصالحوه[1]، وعندها حشد القائد أبو عبيدة (٣٥) ألفًا بإمرة سبعة قوّاد إلى بيت المقدس.

- فالراية الأولى لخالد بن الوليد على خمسة آلاف فارس من خيل الزحف في اليوم الأول.

- ثم في اليوم التالي الراية الثانية ليزيد بن أبي سفيان على خمسة آلاف وأمره أن يلحق بخالد.

- ثم في اليوم الثالث الراية الثالثة لشرحبيل بن حسنة، على خمسة آلاف فارس من أهل اليمن. وأمره بألاّ يختلط بعسكر من تقدمه.

- الراية الرابعة للمرقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، على خمسة آلاف مع جمع من المسلمين.

- والراية الخامسة للمسيب بن نجيّة الفزاري على خمسة آلاف فارس، ثم في اليوم السادس كانت الراية لقيس بن هبيرة المرادي على خمسة آلاف فارس. وفي اليوم السابع كانت الراية السابعة لعروة بن مهلهل بن زيد الخيل على خمسة آلاف.

وصحبت النساء هذا الجيش وساروا إلى طبريا فالناصرة فنابلس فالقدس في مسافة بلغت ٣١٠ كيلو متر.

ولما حاصرت الجيوش المدينة امتلأ الجوّ بالتهليل والتكبير، ومضت

---

(١) «إتحاف الأخصا بفضائل الأقصى» لأبي عبد اللَّه المنهاجي السيوطي (١/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) مكتبة ابن الجوزي.

ثلاثة أيام على الحصار ولم يخرج أحد من الروم يفاوض العرب، وظهر للعرب أن الروم مهتمون بتحصين الأسوار من الداخل ونصب المنجنيقات عليها.

◻ وفي اليوم الرابع قال فارس لشرحبيل: كأن هؤلاء القوم صم فلا يسمعون، أو بكم فلا ينطقون، أو عمي فلا يبصرون.

وفي فجر اليوم الخامس كان أول من ركب من الأمراء لسؤال أهل «إيليا» يزيد بن أبي سفيان فدنا من السور ومعه ترجمان، وجرى أول اتصال بين العرب والروم قبل أن يطلق أي سهم، وعُرضت مبادئ الإسلام في المفاوضات: الإسلام، أو الصلح، أو القتال. فرفض الروم الشروط فرجع يزيد إلى الأمراء بالجواب. فقالوا: إذن القتال، فمنعهم منه؛ لأن أبا عبيدة لم يأذن لهم فيه إلا بعد أن يُراجع، فكتبوا إليه فأجابهم بمباشرة القتال، وأنه قادم عليهم.

فأول من برز للقتال شرحبيل بن حسنة ورجال اليمن، ثم اقتحم كل جيش الأسوار من الناحية التي هو عليها وفق تعليمات أبي عبيدة.

◻ ونقل الواقدي[1] أخبار من شهدوا الفتح فقالوا إن النشاب كان كالجراد واستمر هذا حتى الغروب ولكن على غير طائل، وفي الليل أوقدت النيران العظيمة. واستؤنف القتال في اليوم التالي ولا نتيجة، وهكذا حتى اليوم الحادي عشر. فأشرقت على العرب راية أبي عبيدة يحملها غلامه سالم، ومعه عبد الرحمن بن أبي بكر والنساء.

(١) الواقدي: إمام المغازي كما قال الشافعي، وإن كان ضعيفًا عند المحدثين. وأصله من القدس.

وكان لوصول أبي عبيدة ضجّة بلغت داخل الأسوار فعلم الروم أن أمير الجيش قد حضر. ووقع الرعب في قلوب الروم، وذهبوا إلى البطريرك فأخبروه بمقدم أمير القوم.

قال الواقدي:

قال البطريرك: «وحق الإنجيل إن كان قدم أميرهم فقد دنا هلاككم والسلام.

قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأنا نجد في العلم الذي ورثناه عن المتقدمين أن الذي يفتح الأرض في الطول والعرض هو الرجل الأسمر الأحور المسمى بعمر صاحب نبيهم محمد، فإن كان قدم فلا سبيل لقتاله، ولا طاقة لكم بنزاله، ولا بد لي أن أشرف عليه، وأنظر إليه، وإلى صورته، فإن كان إياه عمدت إلى مصالحته، وأجبته إلى ما يريد، وإن كان غيره فلا نسلّم إليه قط، لأن مدينتنا لا تُفتح إلا على يد من ذكرته لكم والسلام»[1] .

فوثب البطريرك ومن معه من القساوسة والرهبان، ليتحققوا من شخصية الأمير، فعرفوا أنه ليس عمر، وقال لبني قومه: «ليس هو هذا الرجل فأبشروا وقاتلوا عن بلدكم ودينكم»[2] وأقبلوا فقاتلوا قتالاً شديدًا، واستمر النزال والحصار لهذه المدينة المقدسة أربعة أشهر، وقد أظهر المسلمون بطولة وشجاعة نادرتين، فقاتلوا قتالاً شديدًا، وصبروا على البرد القارس والثلج والمطر.

ويروي الواقدي مثالاً من استبسال المسلمين وهو أن ضرار بن

---

(١) فتوح الشام للواقدي (١/ ٢١٦).

(٢) المرجع السابق.

الأزور أراد أن يرمي بطريقًا واقفا على السور وقد ظفر بذلك.

وكان عـوف بن مـهلهل ينظر إلى ضرار وهو يحـاول مراده. قـال عوف: فنظرت إلى ضرار وقد قصد نحـو البطريق يختفي ويستتر إلى أن قرب مـن البرج الذي عليـه البطريق، ثم أطلق عليـه نبلة، فنظرت إلى النبلة مع علو هذا الجـدار، فقلـت: [illegible] مع هذا العلوّ ومـا الذي تصنع وعلى البطريق هذه اللاّمة[1]

فأقسم باللَّه لقـد وقعـت في [illegible] إلى أسفل البـرج فسمعت للقوم ضجّة وجولة هائلة فعلمت [illegible]

ولما رأى الروم حالهم تض[illegible] لا مدد يأتيهم من الخارج طلبوا من البطريرك مفاوضة العرب ابتغاء الفرج، فأجاب البطريرك إلى ذلك، فاشتمل بلباسه وصعد السور وحوله الرهبان والقسوس وكلهم بمظهر مهيب.

وقـال البطريرك: «ماذا تريدون منـا في هذه البلدة المقدسـة، ومن قصدها يوشك أن يغضب اللَّه عليه ويهلكه».

فقال أبو عبيدة: «نعم إنها شريفة، وفيها أسري بنبينا ﷺ إلى السماء ودنا كقـاب قوسين أو أدنى، وإنها معدن الأنبياء وقبـورهم فيها، ونحن أحق منكم بها، ولا نزال عليهـا، أو يملّكنا اللَّه إياها، كما ملكنا غيرها».

قال البطريرك: فما الذي تريدون منا؟

وتقدّم أبو عـبيدة فـعرض الشروط الثـلاثة: فكانت النتيجـة كأول مرة، وكان آخر جواب البطريرك: «إنكم لو أقـمتم علينا عشرين سنة ما

---

(١) درع الحرب.

فتحتم هذه البلدة»، واتسعت المفاوضات، ولما رأوا إصرار المسلمين على القتال وعزمهم الأكيد على فتح المدينة أذعنوا للصلح وتسليم المدينة، ولكنهم اشترطوا ألاّ يُسلّموها إلا لصاحب محمد عمر، فوافقهم أبو عبيدة[١].

وكتب أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ:

«بسم الله الرحمن الرحيم

لعبد الله عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من أبي عبيدة بن الجراح.

سلام عليك.

فإني أحمد الله تعالى إليك الذي لا إله إلا هو.

أما بعد:

فإنا أقمنا على أهل إيليا وظنوا أن لهم في مطاولتهم فرجًا فلم يزدهم الله إلا ضيقًا ونقصًا وهزلاً وذلاً، فلما رأوا ذلك سألوا أن يقدم أمير المؤمنين فيكون هو الموثق لهم والمكاتب فخشينا أن يقدم أمير المؤمنين فيغدر القوم، ويرجعوا فيكون سيرك أصلحك الله عناء وفضلاً، فأخذنا عليهم المواثيق المغلّظة بأيمانهم ليقبلنّ وليؤدن الجزية وليدخلنّ فيما دخل فيه أهل الذمة ففعلوا، فإن رأيت أمرك. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

فلما قدم الكتاب على عمر ـ رضي الله عنه ـ دعا رؤساء المسلمين

(١) انظر كتاب «القدس تناديكم» للمقدم الركن أحمد عبد ربه بصبوص ص(١٣٦ ـ ١٣٩) ـ دار البشير، وكتاب «بيت المقدس وما حوله» للدكتور محمد عثمان بشير ص(٦٤ ـ ٦٥) مكتبة الفلاح.

إليه وقرأ عليهم كتاب أبي عبيدة ـ رضي اللَّه عنه ـ واستشارهم في الذي كتب إليه، فقال له عثمان ـ رضي اللَّه عنه ـ: «إن اللَّه تعالى قد أذلّهم وحصرهم، وضيّق عليهم، وهم في كل يوم يزدادون نقصًا وهزلاً وضيقًا ورعبًا، فإن أنت أقمت، ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخفًّا، ولشأنهم حاقرًا غير معظم فلا يلبثون إلا قليلاً حتى ينزلوا على الحكم ويعطوا الجزية. فقال عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ: ماذا ترون، عند أحدكم رأى غير هذا الرأى؟

فقال علي بن أبي طالب ـ رضي اللَّه عنه ـ: نعم عندي غير هذا الرأي، قال: ما هو؟ قال: إنهم قد سألوا المنزلة التي فيها الذل لهم والصغار، وهو على المسلمين فتح ولهم فيه عز يعطونكها الآن في العاجل في عافية، وليس بينك وبين ذلك إلا أن تقدم عليهم ذلك في القدوم عليهم الأجر في كل ظماء ومخمصة، وفي كل واد وفي كل نفقة حتى تقدم عليهم، فإذا أنت قدمت عليهم كان الأمن والعافية والصلاح والفتح، ولست آمن إن يئسوا من قبولك الصلح منهم أن يتمسكوا بحصنهم فيأتيهم عدو لنا أو يأتيهم منهم مدد فيدخل على المسلمين بلاء، ويطول بهم حصار فيصيب المسلمين من الجهد والجزع ما يصيبهم، ولعلّ المسلمين يدنون من حصنهم فيرشقونهم بالنشاب ويقذفونهم بالمناجيق، فإن أصيب بعض المسلمين تمنّيتم أنكم افتديتم قتل رجل واحد من المسلمين بمسيرك إلى منقطع التراب وكان لذلك المسلم من إخوانه أهلاً.

□ فقال عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ: قد أحسن عثمان النظر في مكيدة العدو، وأحسن عليّ النظر لأهل الإسلام فجزاهما اللَّه خيرًا ولست آخذ إلا بمشورة علي، سيروا على اسم اللَّه فإني ساير واستخلف على المدينة

علي بن أبي طالب[١].

وخرج عمر على بعير أحمر وعليه غرارتان في أحدهما سويق، وفي الآخر تمر، وبين يديه قربة ماء وخلفه جفنة للزاد[٢]، ومعه خادمه أسلم والعباس بن عبد المطلب، ولما أطلّ عمر على جبل المكبِّر كبّر، وخرج أبو عبيدة والأمراء لاستقبال الخليفة، وضُربت له خيمة من شعر وهذا ما أكّدته رواية الواقدي، وجلس على التراب ثم قام يصلي، وعلت للمسلمين ضجّة عظيمة بالتهليل والتكبير، فسمع أهل بيت المقدس الضجّة والجلبة.

❏ ثم بعد ذلك قال عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ لأبي عبيدة: يا عامر، تقدّم إلى القوم وأعلمهم أني قد أتيت». فتقدم أبو عبيدة من السور وصاح بهم:

«إن صاحبنا أمير المؤمنين قد ورد؛ فماذا تصنعون فيما قلتم؟».

بعد ذلك خرج البطريرك وعليه المسوح وبين يديه الصليب والأساقفة والرهبان، والصليب لا يُخرجونه إلا في عيدهم.

فتقدم أبو عبيدة فقال له البطريرك: «ما تشاء أيها الشيح الباهي؟».

فقال أبو عبيدة: «هذا أمير المؤمنين عمر ليس عليه أمير قد أتى، فاخرجوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة وأداء الجزية»، فقال البطريرك: إن كان صاحبك الذي ليس عليه أمير قد أتى فدعْه يدنو منا ـ وأفردوه من بينكم ليقف بإزائنا حتى نراه.

---

(١) «إتحاف الأخصّا بفضائل المسجد الأقصى» (١/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠).
(٢) الواقدي: «كتاب فتوح الشام».

فَهمّ عمر بالقيام، فقال له أصحابه: «تخرج إليهم منفردًا وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة؟ وإنا نخشى عليك منهم غدرًا ومكرًا»، فقال عمر: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

ثم أمر ببعيره، فاستوى عليه، وعلى رأسه عباءة قطوانية[١] وقد عبّ بها رأسه، وليس معه غير أبي عبيدة يسير بين يديه حتى قرب من السور ووقف بإزاء البطريرك والبطارقة.

ثم قام البطريرك يمسح عينيه، ونادى بأعلى صوته: انزلوا اعقدوا معه الأمان، هو صاحب محمد، ففتحت الأبواب ودخل عمر والأمراء إيلياء».

دخل عمر القدس يوم ٢٥ ربيع أول عام ١٥هـ، ودخلت من ورائه الجيوش الإسلامية وراياتهم فوق الرؤوس»[٢] .

نعم.. نعم.. يسير الفاروق لفتح القدس.. ولو إلى آخر البسيطة.

نعم أمشي إليك على جفوني ولو بعدت لمسراك الطريق

يسير في هذا الموكب الخالد: بعيره، وجفنته، وتمره، وقربة مائه، وخادمه أسلم يتعاقب معه ركوب الدابة، ولكنه يجرّ خلفه أمجاد النصر على فارس، واليرموك وفتح دمشق وحمص وأنطاكية واللاذقية وبعلبك وطبرية وبيسان وسبسطية ونابلس وأجنادين وغزة ورفح.

يعلّم الدنيا دروسًا وعظات لا تأتي إلا من مثل عمر الزاهد، وأبي عبيدة الأمين .

---

(١) نسبة إلى مكان قرب الكوفة مشهورة بصنع الأكسية.

(٢) «القدس تناديكم» للمقدم الركن أحمد عبد ربه بصبوص ص(١٤١ ـ ١٤٢).

صفحات مجد في الخلود سطورها ‏ ‏ أضاء الزمـــان بها بغيـــر جـــدال

*** القدس تُسَلِّم للأمين الزاهد، ويُضيّعها الخونة المترفون:**

وهكذا سلّمت القدس للأمـين.. أمينَ هذه الأمة.. ولا تُسلِّم أبدًا أمرها إلا لأمين يسيـر على درب أبي عبيدة. يفـتحها الأمناء، ويضيّـعها ويفرّط فيها الخونة.

◘ سلّمت القـدس للزاهد أبي عـبيـدة ـ رضي اللَّه عنه ـ الذي لا يكترث بمتاع الدنيا.

أرسل إليه عـمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنـه ـ بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار، وقال لرسوله: «انظر ما يصنع» فقسّمها أبو عبيدة، فلما أخبر عمر رسولهُ بما صنع أبو عبـيدة بالمال، قال: «الحمد للَّه الذي جعل في الإسلام مَن يصنع هذا!!»[١].

ولما قدم عـمر الشـام، تلقاه أمراء الأجنـاد وعظماء أهل الأرض، فقال عمر: «أين أخي؟». فقالوا: مَنْ؟ قال: «أبو عبيدة»، قالوا: يأتيك الآن، فجاء على ناقة مـخطومة بحبل، فسلّم عليه، فـقال عمر للناس: «انصرفوا عنا»!، وسار مع أبي عبـيدة حتى منزله فنزل عليه، فلمْ يرَ في بيته إلا سـيفه وترسه، فقال عمـر: «لو اتخذت متاعًا» ـ أو قـال شيئًا ـ فقال أبو عبيدة: «يا أمير المؤمنين، إن هذا سيُبلغنا المقِيل»[٢].

وفي رواية أن عمر قال: «اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عُبيدة»، فقال له: «ومـا تصنع عندي يا أمـير المؤمنين؟ مـا تريد إلا أن تعـصر عـينيك

---

(١) «طبقات ابن سعد» (٣/ ٤١٣).

(٢) «الإصابة» (٤/ ١٢)، و«أسد الغابة» (٣/ ٨٦).

عليّ!». ودخل عمر فلم ير في البيت شيئًا، فقال: أين متاعك؟ لا أرى إلا لبدًا، وصحفة، وشنًّا وأنت أمير!، أعندك طعام؟ فقام أبو عُبيدة إلى جونة[1] فأخذ منها كُسَيْرات، فبكى عمر، فقال له أبو عبيدة: قلت لك: إنك ستعصر عينيك عليّ يا أمير المؤمنين! يكفيك من الزاد ما بلَّغك المحل!! فقال عمر: «غيّرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عُبْيدة»!

وضيّعها المترفون الذين أثروا على حساب القدس.. أصحاب السيجار، وكازينو القمار، والقصور في الريف الإنجليزي وشواطئ الريفيرا.. وسل أول وزارة فلسطينية كم سرقت واختلست.

◻ ضيّعها الخونة الذين بدّلوا الراية.. من إسلامية إلى علمانية.. فهانت القدس في أعين الغوغاء والدهماء.

مَن باعنا خبّروني كلهم صمتوا
والأرض أضحتْ مزادًا للمرابينا

* فتح بيت المقدس على يد الفاروق عمر - رضي اللَّه عنه -:

في سنة خمس عشرة ذكر أبو جعفر بن جرير أن أبا عبيدة حاصر بيت المقدس وضيّق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. فكتب إليه أبو عبيدة بذلك فاستشار عمر الناس في ذلك، فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب ليكون أحقر لهم، وأرغم لأنوفهم. وأشار علي بن أبي طالب بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم بينهم، فهوى ما قال عليّ، ولم يهوَ ما

---

(١) القربة الخَلِق.

قال عثمان.

وسار بالجيوش نحوهم، واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب وسار بالعباس بن عبد المطلب على مقدمته، فلما وصل إلى الشام تلقّاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء، كخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، فترجّل أبو عبيدة وترجّل عمر، فأشار أبو عبيدة ليقبّل يد عمر فَهَمَّ عمر بتقبيل رجل أبي عبيدة، فكفّ أبو عبيدة فكفّ عمر. ثم سار حتى صالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها إذ دخل المسجد من الباب الذي دخل منه رسول اللَّه ﷺ ليلة الإسراء.

ويُقال: إنه لبّى حين دخل بيت المقدس فصلّى فيه تحية المسجد بمحراب داود، وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة من الغد، فقرأ في الأولى بسورة ص وسجد فيها والمسلمون معه، وفي الثانية بسورة بني إسرائيل، ثم جاء إلى الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار، وأشار عليه كعب أن يجعل المسجد من ورائه فقال: ضاهيت اليهودية. ثم جعل المسجد في قبلي بيت المقدس، وهو العمري اليوم، ثم نقل التراب عن الصخرة في طرف ردائه وقبائه، ونقل المسلمون معه في ذلك، وسخّر أهل الأردن في نقل بقيتها، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة؛ لأنها قبلة اليهود، حتى أن المرأة كانت ترسل خرقة حيضتها في داخل الحوز لتلقى في الصخرة، وذلك مكافأة لما كانت اليهود عاملت به القمامة وهي المكان الذي كانت اليهود صلبوا فيه المصلوب، فجعلوا يلقون على قبره القمامة فلأجل ذلك سمى ذلك الموضع القمامة، وانسحب هذا الاسم على الكنيسة التي بناها النصارى هنالك.

وقد كان هرقل حين جاءه الكتاب النبوي، وهو بإيلياء وعظ النصارى فيما كانوا قد بالغوا في إلقاء الكناسة على الصخرة حتى وصلت إلى محراب داود قال لهم: إنكم لخليق أن تُقتلوا على هذه الكناسة مما امتهنتم هذا المسجد كما قُتلت بنو إسرائيل على دم يحيى بن زكريا، ثم أُمِروا بإزالتها فشرعوا في ذلك فما أزالوا ثلثها حتى فتحها المسلمون فأزالها عمر بن الخطاب»[١] .

◻ وذكر ابن جرير: «أن عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ ركب من المدينة على فرس ليُسرع السير بعد ما استخلف عليها علي بن أبي طالب، فسار حتى قدم الجابية فنزل بها، وخطب بالجابية خطبة طويلة بليغة منها: «أيها الناس أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تُكْفَوْا أمر دنياكم، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أبٌ حي، ولا بينه وبين اللَّه هوادة[٢] ، فمن أرادَ لَحْبَ[٣] وجه الجنة فليلزم الجماعة؛ فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد، ولا يخلون أحدكم بامرأة؛ فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن».

ثم صالح عمر أهل الجابية، ورحل إلى بيت المقدس، وقد كتب إلى أمراء الأجناد أن يُوافوه في اليوم الفلاني إلى الجابية، فتوافوا أجمعون في ذلك اليوم إلى الجابية، فكان أول من تلقاه يزيد بن أبي سفيان، ثم أبو عبيدة، ثم خالد بن الوليد في خيول المسلمين وعليهم يلامق الديباج، فسار إليهم عمر ليحصبهم[٤] فاعتذروا إليه بأن عليهم

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٥٦ ـ ٥٧).
(٢) هوادة: اللِّين وما يرجى به الصلاح.
(٣) لَحْب: طريق.
(٤) يحصبهم، أي: يبعدهم ويقصيهم.

السلاح، وأنهم يحتاجون إليه في حروبهم، فسكت عنهم واجتمع الأمراء كلهم بعدما استخلفوا على أعمالهم، سوى عمرو بن العاص وشرحبيل، فإنهما مواقفان الأرطبون بأجنادين، فبينما عمر في الجابية إذا بكردوس من الروم بأيديهم السيوف مسللة، فسار إليهم المسلمون بالسلاح.

فقال عمر: إن هؤلاء قوم يستأمنون، فساروا نحوهم؛ فإذا هم جند من بيت المقدس يطلبون الأمان والصلح من أمير المومنين حين سمعوا بقدومه، فأجابهم عمر ـ رضي اللَّه عنه ـ إلى ما سألوا، وكتب لهم كتاب أمان ومصالحة، وضرب عليهم الجزية، واشترط عليهم شروطًا ذكرها ابن جرير، وشهد في الكتاب خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وهو كاتب الكتاب، وذلك في سنة خمسة عشر. ثم كتب لأهل لدٍّ وَمَن هنالك من الناس كتابًا آخر، وضرب عليهم الجزية، ودخلوا فيما صالح عليه أهل إيلياء، وفرّ الأرطبون إلى بلاد مصر، فكان بها حتى فتحها عمرو بن العاص...

ولما صالح أهل الرملة وتلك البلاد، أقبل عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة حتى قدما الجابية فوجدا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب راكبًا، فلما اقتربا منه أكبّا على ركبتيه فقبّلاها واعتنقهما عمر معًا ـ رضي اللَّه عنهم ـ.

◘ قال سيف: ثم سار عمر إلى بيت المقدس من الجابية وقد توحّى[1]

---

(١) توحّى: أسرع.

فرسه فأتوه ببرذون[١] فركبه فجعل يهملج[٢] به، فنزل عنه وضرب وجهه وقال: لا علّم اللَّه من علّمك، هذا من الخيلاء، ثم لم يركب برذونًا قبله ولا بعده، ففُتحت إيلياء وأرضها على يديه ما خلا أجنادين فعلى يد عمرو، وقيسارية فعلى يدي معاوية. هذا سياق سيف ابن عمر، وقد خالفه غيره من أئمة السير، فذهبوا إلى أن فتح بيت المقدس كان في سنة ست عشرة»[٣].

◻ لما فتح عمر بيت المقدس وتحقّق موضع الصخرة، أمر بإزالة ما عليها من الكناسة؛ حتى قيل: إنه كنسها بردائه.

◻ وعند أحمد: «تقدم إلى القبلة فصلّى، ثم جاء فبسط رداءه، وكنس الكناسة في ردائه، وكنس الناس»[٤].

◻ قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٧/ ٦١): «عن أبي الغالية الشامي قال: «قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق إيلياء على جمل أورق، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة ولا عمامة، تصطفق رجلاه بين شعبتي الرحل بلا زكاب، وطاؤه كساء أنبجاني ذو صوف، هو وطاؤه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفًا، هي حقيبته إذا ركب ووسادته إذا نزل، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرّق جنبه. فقال: ادعوا لي رأس القوم، فدعوا له الجلومس، فقال: اغسلوا قميصي وخيّطوه وأعيروني ثوبًا أو قميصًا. فأُتي بقميص

---

(١) برذون: دابة.

(٢) يهملج به: يتبختر به.

(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ٥٨).

(٤) «البداية والنهاية» (٧/ ٥٩). قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد.

كتان فقال: ما هذا؟ قالوا: كتان. قال: وما الكتّان؟ فأخبروه فنزع قميصه فغسل ورُقِّع وأُتي به، فنزع قميصهم ولبس قميصه. فقال له الجلومس: أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئًا غير هذا وركبت برذونًا لكان أعظم في أعين الروم. فقال: «نحن قوم أعزّنا اللَّه بالإسلام فلا نطلب بغير اللَّه بديلاً». فأُتي ببرذون فطرح عليه قطيفة بلا سرج ولا رحل فركبه به، فقال: احبسوا احبسوا، ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هذا فأُتي بجمله فركبه.

وعن طارق بن شهاب قال: لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع موقيه فأمسكهما بيد، وخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم صنيعًا عظيمًا عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا، قال: فصكّ في صدره وقال: «أَوَلَوْ غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذلّ الناس، وأحقر الناس وأقلّ الناس، فأعزّكم اللَّه بالإسلام فمهما تطلبوا العزّ بغيره يذلكم اللَّه».

❑ «دخل عمر - رضي اللَّه عنه - القدس عن طريق جبل «المُكبر»[1] الذي سُمِّي بهذا الاسم؛ لأن عمر - رضي اللَّه عنه - لمّا أشرف على المدينة من فوقه كبَّر وكبَّر معه المسلمون، وكان عمر - رضي اللَّه عنه - ممتطيًا بعيرًا أحمر عليه غرارتان في أحدهما سويق وفي الآخر تمر، وبين يديه قربة مملوءة بالماء، وخلفه جفنة للزاد، وذكر ابن الجوزي أنه كان يتبادل مع غلام له الركوب على الراحلة، فعندما بلغ الخليفة سور المدينة كان دور الركوب لغلامه، فنزل عمر وركب الغلام وعمر يمسك بخطام

(١) وهو جبل «طورزيتا».

البعير، فلما رآه المحصورون آخذًا بمقود الراحلة وغلامه فوقها أكبروه، وبكى بطريرك النصارى (صفرونيوس)، وقال: «إن دولتكم باقية على الدهر، فدولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة»[١] .

□ وكتب عمر وثيقة الأمان، وبعد أن انتهى من كتابتها طلب من البطريرك أن يَدُلَّه على مكان مسجد داود، فسارا وسار معهما أربعة آلاف من المسلمين متقلدين سيوفهم، وراوغهم البطريرك ليعمّي عليهم مكان المسجد، وفي النهاية مضى بهم إلى مكان مسجد بيت المقدس حتى وصلوا الباب المسمى «باب محمد»، وكان الباب يكاد أن يغلق لانحدار ما في داخل السور من الزبالة على درجه، فتجشّم الجميع الدخول إلى الصحن، ونظر عمر يمينًا وشمالاً، ثم قال: «اللَّه أكبر، هذا والذي نفسي بيده مسجد داود عليه السلام الذي أخبرنا رسول اللَّه ﷺ أنه أسري به إليه». وكان على الصخرة زبل كثير مما طرحته الروم غيظًا لبني إسرائيل، فبسط عمر رداءه وجعل يزيل هذا الزبل، والمسلمون يحذون حذوه، ومضى عمر نحو محراب داود فصلى فيه وقرأ سورة ص وسجد[٢] .

□ وفي «تاريخ الطبري» (٣/ ٦١٠):

«كان الذي صالح عن فلسطين رجل يدعى العوّام من أهل إيلياء والرملة». وقد صالح عمر أهل القدس وهو بالجابية، وكتب لهم فيها الصلح.

---

(١) «قبل أن يهدم الأقصى» لعبد العزيز مصطفى ص(٨٦)، وانظر «فتوح الشام» للواقدي (١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦) و«الإنس الجليل بتاريخ القدس والجليل».

(٢) «الأنس الجليل» (١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

وذكر الطبري صيغة الصلح:

* **صلح القدس «الوثيقة العمرية»:**

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من خيرها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكْرَهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود»[١].

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت[٢]، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله؛ حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلُبهم؛ حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء

---

(١) كان اليهود قد اغتنموا فرصة الغزو الفارسي لبلاد الشام فهاجموا النصارى، وأثخنوا فيهم، وكانوا يشترون من الفرس الأسرى النصارى ليذبحونهم، فزاد العداء بينهم وبين النصارى، فاشترط هؤلاء على عمر عدم سكنى اليهود معهم. انظر كتاب «تاريخ موجات الجنس العربي في بلاد الشام» ص(٢٤٤، ٣٢٥).

(٢) اللصوت: اللصوص مفردها اللّصت: اللص في لغة طي.

منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد اللَّه وذمّة رسوله وذمة الخلفاء وذمّة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة»[١] ا.هـ

وبعد أن بعث عمر بأمان أهل القدس وسكنها الجند سار إليها من الجابية، فرأى فرسه يتوجع من حافره فنزل عنه[٢]، وأتوه ببرذون فهزّه وتخلّج به فنزل عنه وضرب وجهه بردائه، وقال: قبّح اللَّه مَن علّمك هذا، هذا من الخيلاء! ثم دعا بفرسه بعد أن أجمّه أيامًا حتى صلب حافره فركبه، ثم سار حتى انتهى إلى بيت المقدس، ثم مضى حتى دخل المسجد، واتجه نحو محراب داود[٣] والمسلمون معه، فدخله وقرأ سجدة داود فسجد وسجد المسلمون معه.

«وعن رجاء بن حيوة عمن شهد قال: لمّا شخص عمر من الجابية إلى إيلياء، فدنا من باب المسجد، فقال: اركبوا لي كعبًا[٤]، فلما انفرق به الباب قال: «لبيك اللَّهم لبيك بما هو أحب إليك»، ثم قصد المحراب، محراب داود عليه السلام، وذلك ليلاً فصلى فيه، ولم يلبث أن طلع الفجر، فأمر المؤذن بالإقامة، فتقدّم فصلّى بالناس وقرأ بهم «ص» وسجد

(١) «الطبري» (٣/ ٦٠٩).
(٢) «الطبري» (٣/ ٦١٠).
(٣) «الطبري» (٣/ ٦١٠).
(٤) أي: كعب الأحبار.

فيها، ثم قام وقرأ بهم في الثانية صدر «بني إسرائيل»[١]، ثم ركع ثم انصرف»[٢]

* رواية للفتح عند ابن عساكر:

□ روى الحافظ ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٢٨٩) في ترجمة العباس ـ رضي اللَّه عنه ـ:

«عن أسلم قال: لما دنا عمر من الشام، وأخذ طريق أيلة[٣] تنحّى وتنحىّ معه غلامه، فلما أراد الركوب عمد إلى مركب غلامه وإنّ عليه لفروًا مقلوبًا، فركب وحوّل غلامه إلى رحل نفسه، وهو على جمل أحمر، وعمر يومئذ متَّزر بإزار ومرتدٍ بعمامة على حقيبة من فرو تحته فرو، وإن العباس لبَيْن يديه على عتيق تتقذا به، وكان رجلاً جميلاً، فجعلت البطارقة يسلّمون عليه فيشير إليهم إني لست به، وأنه ذاك، فيسلمون عليه، ويرجعون معه حتى انتهى إلى أيلة والجابية، وتوافى إليه بها المسلمون وأهل الذمة، ثم ركب عمر من الجابية يريد الأردن[٤] بعدما أمضى ما أراد، وقد توافى إليه الناس، ووقف له المسلمون وأهل الذمة، فخرج إليهم على حمار ومعه العبد وأمامه العبّاس على فرس، فلما رآه أهل الكتاب سجدوا له، فقال: لا تسجدوا للبشر، واسجدوا للَّه، ومضى في سبيله، فقال القسيسون والرهبان: ما رأينا أحدًا قط أشبه بما

(١) أي: سورة الإسراء.
(٢) «الطبري» (٣/ ٦١١).
(٣) أيلة هي: العقبة.
(٤) الأردن هنا يريد بها طبرية.

يُوصف به الحواريين من هذا الرجل، ثم دخل الأردن على بعيره».

* فتح القدس في المصادر المسيحية :

نتقل هنا وجهة نظر المسيحيين، ولا نقول إنها الصورة التاريخية الحقيقية.

وهذه ترجمة لمخطوط تاريخي هام قديم باليونانية وجده عبد اللَّه التل قائد معركة القدس سنة ١٩٤٨ ثم حاكمها العسكري في دير المصلبة في القدس يقول:

«لما اشتد حصار جيوش المسلمين ببيت المقدس سنة ٦٣٦م، أطل البطريرك صفرونيس على المحاصرين من فوق أسوار المدينة، وقال لهم: إنا نريد أن نُسلّم، ولكن بشرط أن يكون التسليم لأميركم: فقدّموا له أمير الجيش، فقال: لا، إنما نريد الأمير الأكبر، نريد أمير المؤمنين. فكتب أمير الجيش إلى عمر بن الخطاب يقول: إن القوم يريدون تسليم المدينة لكنهم يشترطون أن يكون ذلك ليدك شخصيًّا. فخرج عمر من المدينة قاصدًا بيت المقدس، ومعه راحلة واحدة وغلام، فلما صار في ظاهر المدينة قال لغلامه: نحن اثنان والراحلة واحدة، فإن ركبت أنا ومشيت أنت ظلمتك، وإنْ ركبت أنت ومشيت أنا ظلمتني، وإن ركبنا قصمنا ظهرها، فلنقتسم الطريق مثالثة، وأخذ عمر يركب مرحلة ويقود مرحلة، وتمشي الراحلة أمامهما متخففة مِن حَمْل أحَدٍ مرحلة. وهكذا استمّر عمر يقسم الطريق مثالثة بين نفسه وبين غلامه وبين راحلته من المدينة حتى بلغ جبلاً مشرفًا على القدس صادف أن كانت ببلوغه قد انتهت مرحلة ركوبه، فكبّر من فوق الراحلة، ولما فرغ من تكبيره قال لغلامه: دَوْرَك.. اركب، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين! لا تنزلن ولا

أركبنّ، فإنا مقبلون على مدينة فيها مدينة وحضارة، وفيها الخيول المطهمة المُسْرجة والعربات المذهبة، فإن دخلنا على هذه الصورة ـ أنا راكب على الراحلة وأمير المؤمنين آخذ بمقودها ـ هزئوا بنا، وسخروا من أمرنا، وقد يؤثر ذلك على نصرنا، فقال عمر: دورك.. ولو كان الدور دوري ما نزلتُ وما ركبتَ، أما والدَّوْر دورك فواللَّه لأنزلن ولتركبنّ، ونزل عمر وركب الغلام الراحلة، وأخذ عمر بمقودها، فلما بلغ سور المدينة وجد نصاراها في استقباله خارج بابها المسمى بباب دمشق، وعلى رأسهم البطريرك صفرونيوس، فلما رأوه آخذًا بمقود الراحلة وغلامه فوق رحلها، أكبروه وخرّوا له ساجدين. فأشاح الغلام بعصاه من فوق رحلها، وصاح فيهم: ويحكم!! ارفعوا رؤوسكم، فإنه لا ينبغي السجود إلا للَّه، فلما رفعوا رؤوسهم انتحى البطريرك صفرونيوس ناحية وبكى. فتأثر عمر، وأقبل عليه يطيّب خاطره ويواسيه قائلاً: لا تحزن، هوّن عليك، فالدنيا دواليك، يوم لك ويوم عليك. فقال صفرونيوس: أظننتني لضياع الملك بكيت..؟ واللَّه ما لهذا بكيت، وإنما بكيت لمّا أيقنت أن دولتكم على الدهر باقية ترقّ ولا تنقطع.. فدولة الظلم ساعة ودولة العدل إلى قيام الساعة، وكنت حسبتها دولة فاتحين تمرّ ثم تنقرض مع السنين..

ثم سأل عمر البطريرك صفرونيوس عن موضع المسجد الأقصى فدلّه، فوجده مغمورًا بالقمامة، ففرش عمر الظالم![1] عباءته، وأخذ ينزح فيها القمامة من مكان المسجد الأقصى ويُلقيها في الأودية، واقتدى

---

(١) هكذا بالنص!! ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾

به قـادة المسلمين ورؤسـاء الجند حـتى طهروه تطـهيـرًا.. ثم بنى عليـه مسجدًا»[١].

◻ ويضيف عبد اللَّه التل: «جدير بالذكر أنني رأيت مع النص الذي ذكرته رسمًا يمثل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين دخوله القدس، وقد رسموه فـي ثياب أهل الجزيرة العربيـة، ملتحيًا داخـلاً من باب دمشق ـ باب العمـود ـ ذا مهابة وجـلال ووقار، ماشـيًا على قدمـيه، في تواضع المخلصين الأبرار، آخذًا مـقود الراحلة بيـسراه، وإلى أعلى رافـعًا يُمناه محـذّرًا الساجدين له من السجـود لغير اللَّه ـ كـذلك يمثل الرسم الغلام أجرد[٢] أسود مستـقرًّا فوق رحله رافعًا في وجوه القوم عصاه، مستنكرًا سجودهم لمولاه صائحًا فيهم: «إنه لا ينبغي السجود لغير اللَّه»[٣].

* ملاحظات على الوثيقة العمرية:

هناك ملاحظات تطعن في صحة هذه الوثيقة العمرية منها:

◻ قـوله: «سنة خـمس عشـرة» لو صحّ هذا العـهـد، ففـيم إذن

---

(١) كتاب «خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية» ص(١٢٧ ـ ١٢٩).

(٢) قوله: «أجـرد أسود» يدل على أن القصـة مؤلفـة من الخيال، حـيث جعلوا غلام عـمر أجرد، يعـني: أنه من الخصـيان، وهذا يمثل العـبيـد في القرون المتـأخرة، حيـث كانوا يُخْصونهم قبل استخدامهم في القـصور... والمشهور أن الذي كان يرافق عمر هو مولاه أسلم، وقد أنجب ذرية صالحة، وما قال أحد أنه أجرد.

ومما يدل على أن الرواية مصنوعـة ما جاء في هذه المخطوطة: «وجاء المسلمـون من بعده وبنوا على مصـلاه مسجدًا وهو قـائم على رمية حجـر من كنيسة القيـامة إلى يومنا هذا» فكلمة إلى يومنا هذا تدل على أن هذه الرواية مصنوعة في وقت متأخر؛ لأن مسجد عمر الذي بُني في هذا الموضع كان بناؤه في العصر الأيوبي.

الاختلاف بين المؤرخين في زمن الفتح: بين سنة ١٥، ١٦، ١٧هـ.

◻ قوله: «شهد خالد، وعمرو، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية»، أين أبو عبيدة بن الجرّاح، وهو قائد الجيوش، وأمين الأمة، وهو الذي اتفق مع أهل القدس على أن يُرسل إلى عمر، وهو الذي كلمه أهل القدس في طلب الأمان على أن يكون عمر هو الكاتب، وهو الذي أرسل إلى عمر بن الخطاب يعرض عليه المجيء إلى الشام؟!

*** فوائد من الوثيقة ـ إن صحّت:**

◻ قوله: «ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود»، تحتمل على معنيين:

الأول: أن الخليفة ضَمِن لهم هذا الحق. وتحتمل أنه شرط عليهم ألا يسكن معهم أحد من اليهود. وإن كان التفسير الأول أقوى؛ لأن اليهود مُنِعوا من سكنى القدس منذ سنة ١٣٥م، وجاء الفتح وهم محرومون من دخول القدس؛ لأنهم اغتنموا فرصة الغزو الفارسي الأخير لبلاد الشام، فهاجموا النصارى وأثخنوا فيهم، وكانوا يشترون من الفرس، الأسرى النصارى ليذبحوهم فازداد العداء بينهم وبين النصارى، وعندما استعاد هرقل القدس سنة ٦٢٧م طردهم منها، وحرّم عليهم دخولها بمشورة رجال الدين النصارى.

وعلى هذا فيكون أهل القدس قد طلبوا أن يُسجّل لهم هذا الحق في العهد فاستجاب عمر لمطلبهم.. ويحتمل أن يكون عمر شرط ذلك؛ لأنه أراد أن يطهر القدس من خبثهم كما طُهِّرت مكة والمدينة والله أعلم.

وليحفظ القارئ هذا التاريخ: أن اليهود منذ سنة ١٣٥م حتى سنة

٦٣٧م يوم فتح القدس، مضى حوالي خمسمائة سنة وهم ممنوعون من سكنى القدس. ومن المفروض أن يكون قد استمر هذا المنع في العهد الإسلامي. حتى سنة ١٩١٧م زمن وعد بلفور، والاحتلال البريطاني، فمن الذي نقض العهد وفتح لهم أبواب القدس؟

سوف نرى جواب هذا السؤال في مكان آخر، إن شاء اللَّه. ولكن الذي نقدّم قوله، ونؤكد عليه أن نسأل أين كان اليهود مدة خمسمائة سنة قبل الفتح الإسلامي؟ وإذا كان لهم حق مزعوم، فلماذا لم يدافعوا عنه؟ أيسكت صاحب حق خمسمائة سنة عن حقه لو لم يكن حقّا مزعومًا؟[1].

وروى المؤرخون أنَّ الذي تولى عقد الصلح مع عمر، رجل اسمه «العوام» وهذا اسم عربي.

◻ قوله: «وعليهم أن يُخرجوا منها الروم»، هذا يدل على أن سكان القدس لم يكونوا من الروم، وإنما كانوا من أهل فلسطين الذي أحبوا السكن بجوار المسجد الأقصى، وآثار المسيح عليه السلام.

وإذا صحّ النص ففيه إشكال؛ فقوله: «ومن أقام منهم»، وقوله: «وعليهم أن يُخرجوا» متعارضان، هذا شرط وأمر، وهذا فيه الإباحة، ويزول هذا الإشكال إذا قلنا أن النص إن صحّ فلعله يفرّق بين نوعين من الروم:

النوع الأول: جنود الروم، أو الحامية الرومانية.

والنوع الثاني: الروم الذين جاءوا للعبادة في القدس زُوّارًا، أو مجاورين».

(١) «بيت المقدس والمسجد الأقصى» لمحمد محمد حسن شُرّاب ص(٨٦).

* رواية جيدة لكتاب عمر ـ رضي الله عنه ـ لنصارى الشام:

روى الإمام البيهقي، وغيره من طرق جيدة إلى عبد الرحمن بن غنم قال:

كتب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حين صالح نصارى أهل الشام:

«بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا أنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وأموالنا وذرارينا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم علينا وعلى أنفسنا أن لا نُحدث في مدائنا، ولا فيما حولها ديرًا، ولا كنيسة، ولا قلاية، ولا صومعة راهب، ولا نحيي ما كان في خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا أن ينزل بها أحد من المسلمين في ليل أو نهار، وأن نوسّع أبوابها للمارّ وابن السبيل، وأن ينزل من يريد من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نأوي في منازلنا ولا كنائسنا جاسوسًا، ولا نكتم غشًّا للمسلمين، ولا نعلّم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركًا، ولا ندعو إليه أحدًا، ولا نمنع أحدًا من ذوي قربانا الدخول في الإسلام إن أراده، وأن نوقِّر المسلمين ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم، في قلنسوة ولا عمامة، ولا نَعْلَين ولا فراق شعره، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نتكنى بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلّد السيوف، ولا نتخذ شيئًا من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجزّ مقادم رؤسنا، وأن نلتزم زيّنا حيث ما كنا، وأن نشدّ زنانيرنا[1] على أوساطنا، ولا نظهر الصليب على كنائسنا، ولا نظهر

(١) الزنانير: جمع الزنار، وهو الحزام، يلبسها أهل الذمة من اليهود والنصارى.

صلبانًا، ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين، ولا نطّلع عليهم في منازلهم»، قال: فلما أتيت عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ بالكتاب زاد فيه: «ولا نضرب أحدًا من المسلمين، شرطنا لكم ذلك في أنفسنا، وأهل ملتنا، وقد بيّنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا شيئًا مما شرطناه على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حلّ لكم ما حلّ من أهل المعاندة والشقاق»[1] .

* وقفة بل وقفات أمام فتح الفاروق للقدس وعظاته النيِّرات:

«نحن قوم أعزّنا اللَّه بالإسلام، فإن ابتغينا العزّة في غيره أذّلنا اللَّه»

❑ في رحاب الإسلام الزاحف على أعداء اللَّه، وأعداء الإنسان في الشرق والغرب كنا خير أمة أخرجت للناس، نيرة القلوب، مشرقة الوجوه، سامية الأخلاق، صلبة العزائم، صارمة الصولات، خاشعة لقيوم الأرض والسماوات، كانت راية اللَّه خفّاقة على كل الوهاد والسهول، وفي القلوب والرؤوس.

❑ بالإسلام، وبالإسلام وحده، فتحنا القدس وتسلمها الفاروق، وحين غاب الإسلام، وبلا إسلام، فقدنا فلسطين، وتآمرنا عليها، بلا إسلام قامت دولة إسرائيل، وبقيت، وتاجرنا بفلسطين، بلا إسلام ماتت الضمائر، واختفت فلسطين في عالم النسيان الحقيقي، وهي بارزة دائمًا في الإعلام والمتاجرة والغناء.

❑ «نحن قوم أعزّنا اللَّه بالإسلام» تدوّي في أصداء التاريخ، إنها

(١) «إتحاف الأخصّا بفضائل الأقصى» (١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥).

الموازين الإسلامية تسري في نبض عمر وعروقه وجسمه وقلبه، لا شيء غير الإسلام نزن به كل شيء.. به فتحنا الدنيا وعمّرناها وسدناها وبهجره خسرناها وخسرنا معها الآخرة.

* ركب الخليفة لاستلام القدس العريقة:

ناقة واحدة وخادم واحد، وأسمال مرقعة، وزاد الطريق خبز وماء وتمر!! بدلاً من الخيل المطهمة كوكبة منها بل كواكب وحشداً من الخدم. المباهاة والترف يأباه عمر فقد ربّاه الإسلام.. ناقة وخادم وغنائم الإمبراطوريتين تجري أنهاراً في المدينة المنورة.

وكسرى فارس وهو هارب بعد معركة نهاوند «كان معه ألف طاه، وألف مدرّب للبزاة، وألف للنمور، وألف مغن، وحاشية أخرى!!»[(١)].

□يركب الخادم ويمشي الفاروق، ويركب الفاروق ويمشي الخادم، ويمشيان ويريحان الدابة في مسافة ٢٤٠٠ كيلو متر، يمشي ثلث هذه المسافة في جوف الصحراء وقيظها، ولفح الشمس، ووحشة القفار، بل ومخاضة ووحل وهو على مشارف القدس.. يمشي وهو في أواخر الخمسينات من العمر!! هنيئًا لك عند ربك، وهنيئًا لك في التاريخ.. وحق للقائل أن يقول: يا خالق عمر سبحانك!.

يركب الخادم ويخوض عمر في الوحل، ويقود الناقة، ونعله على عاتقه وهو مشمر ثيابه المرقعة!!.. إنه عمر القائل: «ليس الأمر ها هنا ـ وأشار إلى الأرض ـ إنما الأمر ها هنا ـ وأشار إلى السماء».

متى صحّ منك الودّ فالكل هيّن ... وكل الذي فوق التراب ترابُ

(١) «عقيدة اليهود في تملّك فلسطين» لعابد توفيق الهاشمي ص(١٢) ـ مكتبة أم القرى.

◻ لما سلم البطريرك صفرونيوس مفاتيح القدس، واتجه إلى زاوية يبكي، فأتاه عمر يواسيه، وأقبل عليه يطيّب خاطره ويواسيه قائلاً لا تحزن، هوّن عليك، فالدنيا دواليك، يوم لك ويوم عليك» بدلاً من إهانته وتحقيره والاستعلاء عليه شأن الفاتحين قديمًا وحديثًا. . إنه أدب الإسلام.

عُمَرُ بنُ الخطاب أَقبلْ فهذي الـ ... ـقدسُ حنَّتْ إليك منها الكُبُودُ
وفلَسطينُ كلُّ شِبرٍ عليه ... مِنْ دَم المؤمنين دَفْقٌ جديدُ
فَدعتْكَ القلوبُ دعوةَ حقٍّ ... علَّمتها لهم صحائفُ سودُ
عَلمتهُمْ أن الذي يفتحُ القد ... سَ أميرٌ للمؤمنين رشيدُ
يا لفتحٍ له من الحق نورٌ ... صدقت فيه آية ووعودُ
عمر بن الخطاب لؤلؤةُ الفتـ ... ـحِ وعِقدٌ من الوفاء نضيدُ
يا لفتحٍ أبو عبيدة فيه ... جوهرُ الصدق والأمينُ الفريدُ
ورجال من الصحابة أبرا ... ر ودرٌّ في عقده منضود
يا حنينَ الأقصى إلى عمَر الفا ... روق! يا لهفةَ اللقا! هل يَعودُ؟
رَفَّتِ الصخرةُ الشريفةُ لمّا ... أقبلتْ طلعةٌ وأشرقَ عِيدُ
فَجَلاها! ولمْ يَزَلْ منْ هَواهَا ... عَبَقٌ يملأُ الزمانَ وَعُودُ
يَا لفتحٍ تَخيَّرَ الدَّهْرُ مِنْهُ ... مَا تَمَنَّتْ من الجَواهِرِ غِيدُ
ففتوحُ الرسولِ تاجٌ على الدَّهْرِ ... وهذي لآلىءٌ وعُقُودُ[1]

❀ ❀ ❀

(١) «ملحمة الأقصى» د. عدنان النحوي ص(١٣٠ ـ ١٣١) ـ دار النحوي.

وقفـات أخرى مع الفتح العُمَري

المسجد الأقصى يوم الفتح

«سنة ١٥ أو ١٦ هـ»

● عن عُبيد بن آدم وأبي مريم، وأبي شُعيب، أن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ كان بالجابية فذكر فتح بيت المقدس، قال: فقال أبو سلمة، فحدثني أبو سنان عن عُبيد بن آدم قال:

سمعت عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ يقول لكعب: أين ترى أن أُصلي؟ فقال: إنْ أخذت عنّي، صليت خلف الصخرة فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر: ضاهيت اليهودية، لا، ولكن أصلي حيث صلى رسول اللَّه ﷺ، فتقدم إلى القبلة فصلى، ثم جاء، فبسط رداءه، فكنس الكناسة في ردائه، وكنس الناس»[1].

على أصح الأقوال: فإن أصح مكان صلى فيه عمر بن الخطّاب هو المكان المسقوف في هذه الأيام.

❑ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المسجد الأقصى اسم لجميع المسجد.. وقد صار بعض الناس يسمي «الأقصى» المصلى الذي بناه عمر ابن الخطاب في مقدّمه»[2].



---

(١) إسناد جيد: رواه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٨)، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٧/ ٥٨): هذا إسناد جيد اختاره الحافظ ضياء الدين المقدسي في كتابه المستخرج.

(٢) «مجموعة الرسائل الكبرى» لابن تيمية (٢/ ٥٧).

* مُصلَّى عمر أو جامع عمر:

هناك ثلاثة أماكن يمكن أن يُطلق عليها جامع عمر، أو مصلى عمر، أو محراب عمر.

الأول: أن جامع عمر الذي وضعه عند الفتح، داخل في الجامع الكبير، جامع الجمعة.

الثاني: جامع عمر: الموجود في صدر الجامع الكبير من جهة المشرق، القريب من السور الشرقي، وهو بناء متأخر.

الثالث: المسجد العمري: الواقع في الجنوب من ساحة كنيسة القيامة والذي يظهر أنه بُني في زمن الملك الأفضل عليّ بن صلاح الدين، بعد وفاة أبيه، وبه منارة استجدت قبل سنة ٨٧٠هـ... والمسجد بُني سنة ٥٨٩هـ[1].

* قصة لا تثبت:

ما تنقله المصادر المسيحية[2] من أن البطريرك صفرونيوس دعا عمر ابن الخطاب لتفقّد كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس) فلبّى الدعوة، وأدركته الصلاة وهو فيها، فالتفت إلى البطريرك، وقال له: أين أُصلي؟ فقال: مكانك صلِّ، فقال: ما كان لعمر أن يصلي في كنيسة القيامة، فيأتي المسلمون من بَعْدي ويقولون: هنا صلّى عمر، ويبنون عليه مسجداً وابتعد عنها رمية بحجر، وفرش عباءته وصلّى، وجاء المسلمون من بعده

---

(١) انظر «الأنس الجليل» (٢/ ٤٦).

(٢) مخطوط باليونانية وجده عبد اللَّه التل في دير المصلبة في القدس، يُسجِّل تفصيل حادث مجيء الخليفة عمر إلى القدس.

وبنوا على مصلاه مسجدًا، وهو قائم على رمية حجر من كنيسة القيامة إلى يومنا هذا».

«وفي هذه القصة نظر:

أولاً: كون عمر بن الخطاب ذهب وحده إلى كنيسة القيامة، ولم يكن معه أحد من المسلمين.

ثانيًا: كون عمر يذهب إلى الكنيسة، كنيسة القيامة، وفيها قبر عيسى عليه السلام، وهو يخالف اعتقاد المسلمين في عيسى عليه السلام.

ثالثًا: كون عمر يذهب إلى معبد فيه قبر، يخالف المنهيّ عنه، فقد جاء في الأحاديث لعن اليهود والنصارى الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

رابعًا: جعل السبب المانع عمر أن يصلي في كنيسة القيامة، أن لا يتخذه المسلمون مسجدًا والحقيقة - إذا صحّ الخبر أن عمر امتنع من الصلاة فيها لوجود القبر فيها، ولوجود الصور والصلبان، ولا تصحّ الصلاة في هذا المكان»[1].

* حدود المسجد الأقصى:

في العهد النبوي:

لا نملك وصفًا لما كان عليه المسجد قبل فتحه في عهد عمر - رضي اللَّه عنه -، وكل ما نملكه من الأوصاف ما جاء في الأحاديث الصحيحة.

● قال الرسول ﷺ: **«حتى أتيت بيت المقدس، فربطت البراق بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد...»**.

---

(١) «بيت المقدس والمسجد الأقصى» لمحمد محمد حسن شُرَّاب ص(٣٤٦، ٣٤٧).

فقوله: «فربطت بالحلقة»: يوحي أن هناك حدودًا للمسجد، سور مثلاً، وأن من يأتي إلى المسجد بدابته يربطها عند مدخل المسجد، وأن هناك مواقف ومرابط للدواب...

ولكن لا يعني بالضرورة أن يكون للمسجد حينئذ باب مبوّب، وجدران محيطة.. فالمسجد يُعرف بحدوده الأرضية، وإن لم يكن له سور وباب..

ومن الغريب أن عرب الجاهلية لم ينقلوا شيئًا عن وصف المسجد الأقصى، مع أنه جاء في الحديث أنهم تحدّوا رسول اللَّه أن يصفه لهم، فامتحنوا صدقه؛ لأنهم كانوا يعرفونه.. فهذا يدل على أنه كانت له معالم يعرفها من أتاه.

فمعنى هذا أن المسجد الأقصى قد عدت عليه العوادي، وتأثّر بالمتغيرات، وهُدِم بناؤه فيما بعد، ولم يكن ليلة الإسراء مسجدًا قائمًا متكاملاً، وإنما كانت أساساته موجودة، وبعض أعمدته وأطلاله باقية، ومنها تلك الحلقة التي ربط بها رسول اللَّه ﷺ البراق ليلة الإسراء، وقد سمى اللَّه هذه الأطلال والأعمدة والأساسات مسجدًا، وإن لم يكن بناءً قائمًا حيث قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

فقد كان مسجدًا قائمًا من قبل، واستمر مسجدًا قائمًا مئات أو آلاف السنين، وكان يأتيه الأنبياء السابقون على دوابهم للصلاة فيه»[١].

(١) «الأرض المقدسة بين الماضي والحاضر والمستقبل» لإبراهيم العلي ص(٨٦).

* بعد الفتح العمري:

❑ قال مجير الدين الحنبلي في «الأنس الجليل» (٢/ ٢٤):

«إن المتعارف عليه عند الناس أن الأقصى من جهة القبلة، الجامع المبني في صدر المسجد الذي به المنبر والمحراب الكبير.

وحقيقة الحال: أن الأقصى اسم لجميع المسجد مما دار عليه السور.. فإن هذا البناء الموجود في صدر المسجد وغيره، من قبة الصخرة والأروقة وغيرها مُحْدثة والمراد بالأقصى بما دار عليه السور».

❑ وقال في ذرع المسجد طولاً وعرضًا:

«وأما ذرع المسجد، فقد اجتهدت في تحريره، وتولّيت ذلك بنفسي وقيس بحضوري بالحبال، فكان طوله، قبلة بشمال (من الجنوب إلى الشمال) من السور القبلي عند المحراب، إلى صدر الرواق الشمالي عند باب الأسباط ستمائة وستين ذراعًا بذراع العمل الذي تذرع به الأبنية في عصرنا غير عرض السورين، وإن كان فيه زيادة أو نقص نحو ذراعين، أو ثلاثة فهي لاضطراب القياس، لبُعد المسافة، فإني قد احتطت في تحريره وقيس بحضوري مرتين، حتى تحققت صحة القياس.

وعرضه شرقًا بغرب من السور الشرقي المطلّ على مقابل باب الرحمة إلى صدر الرواق الغربي الذي هو أسفل مجمع المدرسة التنكزية أربع مئة ذراع وستة أذرع بذراع العمل غير عرض السورين. وكان هذا سنة ٩٢٠هـ فتكون المساحة ٦٦٠ × ٤٠٦ = ٢٦,٧٩٦

❑ وقال محمد كرد علي سنة ١٩٢٥م: ووقع الحرم على مساحة مربعة، طول الجهة الغربية ٤٩٠م، والشرقية ٤٧٤م، والشمالية ٣٢١م، والجنوبية

٢٨٣م يحيط بها سور، يختلف ارتفاعه بين ٣٠ مترًا و ٤٠ مترًا[١].

تبلغ مساحة الأقصى وأسواره ومنشآته (١٤٠٩٠٠م مربع).

تسلّم الخليفة المفتاح من صفرونيوس وقام بدوره بتسليمه إلى عبداللَّه بن نسيبة وهو من الأنصار، وظل هذا المفتاح تتوارثه هذه الأسرة[٢].

«وأوّل من أمّ المسلمين بعد عمر بن الخطاب في المسجد الأقصى: سلامة بن قيصر، اختلفوا في صحبته، حيث عيّنه عمر على الصلاة في بيت المقدس.

ونقل ابن حجر في «الإصابة» أنه مات بالقدس، وقبره بها، وكان علقمة بن مجزز مشرفًا على شؤونها العسكرية، وهو صحابي، وكان يزيد بن أبي سفيان عاملاً على إدارة بيت المقدس»[٣].

*** فتح قيسارية على يد معاوية بن أبي سفيان ـ رضي اللَّه عنه ـ سنة ١٩ هـ:**

بدأت العمليات تجاه قيسارية حين نزل بها عمرو بن العاص في جمادى الأولى ١٣هـ يولية سنة ٦٣٤م فكان يقيم عليها ما أقام، فإذا كان للمسلمين اجتماع في أمر عدوهم سار إليهم.

فشهد أجنادين وفحل بيان ومرج الصفر واليرموك، ثم رجع إلى فلسطين فحاصر قيسارية بعد فتح القدس. وخرج عمرو بن العاص إلى مصر من قيسارية دون أن يفتحها. وتولّى أمرها يزيد بن أبي سفيان بعد

---

(١) «بيت المقدس والمسجد الأقصى» ص(٣٥١).

(٢) «القدس تناديكم» ص(١٤٥).

(٣) «بيت المقدس والمسجد الأقصى» ص(٣٥٢).

وفاة أبي عُبيدة، فوكّل أخاه معاوية بمحاصرتها وتوجه هو إلى دمشق حيث توفي بها. وبقى معاوية في سبعة عشر ألفًا يعالج فتحها فحاصرها حتى كان فتحها في شوال ١٩هـ سبتمبر/ أكتوبر ٦٣٧م بعد أن كان يئس من فتحها.

وكان الروم يريدون الاحتفاظ بقيسارية موطئ قدم لهم على ساحل الشام الجنوبي في فلسطين، كانت قيسارية مدينة كبيرة، قالوا إن معاوية وجد بها ٧٠٠٠٠٠ من المرتزقة، ومن السامرة ٣٠٠٠٠ ومن اليهود ٢٠٠٠٠٠ ووجد بها ٣٠٠ سوق قائمة كلها، وكان يحرسها في كل ليلة على سورها مائة ألف. وقد تكون في الأرقام مبالغة، ولكنها تدل على أيه حال على كبر حجم قيسارية.

وكان على الروم رجل اسمه أبنى فكان يزاحف معاوية، ولا يزاحفه مرة إلا غلبه معاوية وأعاده إلى حصنه[1] . ثم كانت آخر مزاحفة فخرجوا من حصونهم، واقتتلوا في حفيظة[3] واستماتة، حتى بلغت قتلاهم في المعركة ٨٠٠٠٠ وأكملها في هزيمتهم ١٠٠٠٠٠.

وفي الليل أتى يهودي يدعى[4] يوسف إلى المسلمين فدلّهم على طريق في سرب فيه الماء إلى حِقو الرجل على أن أمّنوه على نفسه وأهله. ودخلها المسلمون ليلاً وكبّروا فيها، وأراد الروم أن يهربوا من ذلك السِّرب فوجدوا المسلمين عليه، وفتح الفريق الذي تسلل إلى داخل

(١) «البلاذري» (١٦٧).
(٢) «تاريخ الطبري» (٣/ ٦٠٤).
(٣) حفيظة، أي: غضب.
(٤) «البلاذري» (١٦٨).

المدينة بابها فدخل معاوية ومن معه، وكان فيها عدد من العرب. وقد بلغ سبي قيسارية ٤٠٠٠ رأس بعث بهم معاوية إلى عمر فأنزلهم الجرف.

وبعث معاوية بالفتح إلى عمر مع رجلين من بني الضبيب من جذام، ثم خاف ضعفهما عن المسير فبعث بعدهما رجلاً من خثعم، فكان الخثعمي يجهد نفسه في السير ليلاً ونهارًا.

وفي رواية: أنه بعث بعد الجذاميين عبد اللَّه بن علقمة الفراسي وزهير بن الحلاب الخثعمي، فلحقاهما وطوياهما وهما نائمان.

دخل البشير على عمر فكبّر وكبّر المسلمون، ونادى عمر أن قيسارية فُتحت قسرًا فأبات المسلمون بالمدينة على الفرح ليلاً وحمد اللَّه، وقال للناس: لتحمدوا اللَّه على فتح قيسارية[١] .

بيت المقدس في عهد الخلافة الأموية

* في عهد معاوية ـ رضي الله عنه ـ:

لم يجرؤ اليهود طوال أيام الخلفاء الراشدين، وأوائل خلفاء الدولة الأموية على الاستيطان بالقدس[٢] .

ولقد نودي بالبيعة لمعاوية ـ رضي اللَّه عنه ـ في مدينة القدس، ولكنه اختار مدينة دمشق عاصمة لخلافته بعد البيعة التي كانت سنة ٤٠ في مدينة القدس[٣] .

---

(١) «الطريق إلى دمشق» لأحمد عادل كمال ص(٥٣٤ ـ ٥٣٥).

(٢) «القدس مدينة اللَّه.. أم مدينة داود» للدكتور حسن ظاظا ص(٩٧) ـ دار القلم دمشق.

(٣) «تاريخ الطبري» (٦/ ٩٣).

* في عهد عبد الملك بن مروان :

ذهب كثير من المؤرخين: الطبري، وابن خلدون، وابن الأثير، وابن كثير أن الوليد بن عبد الملك هو الذي أنشأ قبة الصخرة، وجامع الجماعة في المسجد الأقصى.

وانفرد اليعقوبي وسبط ابن الجوزي بنقل خبر بناء عبد الملك قبة الصخرة والمسجد[1].

رواية اليعقوبي كذب صراح :

مما قاله اليعقوبي:

«منع عبد الملك أهل الشام من الحج، وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجّوا بالبيعة، فلما رأى عبد الملك ذلك، منعهم من الخروج إلى مكة، فضجّ الناس، وقالوا: تمنعنا من حجّ بيت اللَّه الحرام، وهو فرض من اللَّه علينا؟

فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدّثكم أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس**».

وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام!!

وهذه الصخرة التي يروى أن رسول اللَّه ﷺ وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة!!

فبنى على الصخرة قبّة، وعلّق عليها ستور الديباج، وأقام لها سدنة.

---

(١) انظر: «بيت المقدس والمسجد الأقصى» ص(٣٥٧).

وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما تطوف حول الكعبة!! وأقام بذلك أيام بني أمية.

ألا قاتل اللَّه الكذب وأهله، فاليعقوبي كذّاب خبيث يتديّن بكره بني أمية، عقيدة وسياسة ويبيح الكذب عليهم، ومن له أدنى مُسكة من عقل يعلم كذب اليعقوبي على عالم فقيه من علماء المسلمين وهو عبدالملك بن مروان قبل كونه خليفة للمسلمين.

* ضعف رواية سبط ابن الجوزي:

وممن اعتمد كذبة اليعقوبي سبط ابن الجوزي في كتابة «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان».

□ قال عنه ابن حجر في «لسان الميزان» (٦/ ٣٢٨): ألف كتاب «مرآة الزمان» فتراه يأتي فيه بمناكير الحكايات، وما أظنه ثقة فيما ينقله، بل يحنق ويجازف ثم إنه ترفّض.

□ قال صاحب «مرآة الزمان»:

في سنة ٦٦هـ ابتدأ عبد الملك بناء القبّة والجامع.. وكملت عمارته سنة ٧٣هـ وفي هذه الرواية نظر لأن عبد الملك تولّى الخلافة في رمضان سنة ٦٥هـ ويوم تولى الخلافة لم تكن فلسطين تابعة له، وبقيت مدة من سنة ٦٦هـ وهي خارجة عن سلطانه.

□ قال ابن حجر في «تهذيب التهذيب»: قال خليفة: مات يزيد بن معاوية وعلى الأردن حسّان بن مالك، وعلى فلسطين روح بن زنباع، فأخرج ناتل بن قيس روح بن زنباع، ودعا إلى ابن الزبير.

□ وقال السكّري: خرج ناتل على عبد الملك، فبعث إليه عمرو بن سعيد فقتله وحكى عن الليث أنه قُتل سنة ٦٦هـ.

فكيف يبدأ البناء والقدس خارج عن سلطانه؟!

قد يُقال: لعله استرجع فلسطين في منتصف سنة ٦٦هـ فبدأ في البناء بعدها.

الجواب: لا يكون هذا، لأن البناء يحتاج إلى مدة استقرار، والشهور أو السنوات التي تلي الفتنة تكون متأثرة بالفتنة[١].

*** القول الأول بأن باني قبة الصخرة وجامعها هو عبد الملك بن مروان:**

قال المنهاجي السيوطي في «إتحاف الأخِصّا بفضائل المسجد الأقصى» (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢):

روي عن جابر بن رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولى عبد الملك ابن مروان أن عبد الملك حين همّ ببناء صخرة المقدس والمسجد الأقصى قدم من دمشق إلى بيت المقدس وبث الكتب في جميع عمله وإلى سائر الأمصار أن عبد الملك قد أراد أن يبني قبة بيت المقدس تكنّ المسلمين من الحرّ والبرد، وكره أن يفعل ذلك دون رأي رعيته، فكتبت الرعية إليه برأيهم، وما هم له عليه، فوردت الكتب عليه من عمال الأعمال برأي أمير المؤمنين رأيه موفقًا رشيدًا، ونسأل اللَّه تعالى أن يتم له ما نوى من بنايته وصخرته ومسجده، ويجري ذلك على يديه، ويجعله مكرمة له، ولمن مضى من سلفه. قال: فجمع الصناع من عمله كله، وأمرهم أن يصنعوا له صفة القبة، وسمتها من قبل أن يبنيها فكُرِّست له في صحن المسجد، وأمر أن يبني بيت المال في شرقي الصخرة، وهو الذي على

(١) «بيت المقدس والمسجد الأقصى» ص(٣٦٠ ـ ٣٦٢).

حرف الصخرة، فبنى وأشحن بالأموال، ووكّل على ذلك رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام، وأمرهما بالنفقة عليها، والقيام بأمرها، وأن يفرغوا المال عليها إفراغًا دون أن ينفقوه إنفاقًا، وأخذوا في البناء والعمارة حتى أُحكم العمل، وفرغ البناء، ولم يبق لمتكلم فيه كلام، وكتبا إليه بدمشق: قد أتم اللَّه تعالى ما أمر به أمير المؤمنين من بناء قبة الصخرة ببيت المقدس، والمسجد الأقصى، ولم يبق لمتكلم فيه كلام. وقد بقي مما أمر به أمير المؤمنين من النفقة عليه بعد أن فرغ البناء، وأُحْكِم مائة ألف دينار فيصرفها أمير المؤمنين في أحب الأشياء إليه»، فكتب إليهما: قد أمر أمير المؤمنين بها لكما جائزة لما قمتما من عمارة ذلك البيت الشريف المبارك» فكتبا إليه: «نحن أولى أن نزيد من حليّ نسائنا فضلاً عن أموالنا، فاصرفها في أحب الأشياء إليك»، فكتب إليهما بأن «تُسبك وتفرغ على القبة فسُبكت وأُفرغت فما كان أحد يقدر أن يتأملها مما عليها من الذهب».

▫ وقال الدكتور حسن ظاظا: «سُمِح لليهود بالاستيطان بالقدس في أيام الخليفة عبد الملك بن مروان الذي بنى المسجد الجامع، وبنى مسجد قبة الصخرة سنة ٦٨هـ، وكان في فناء الحرم على أيامه عشرة من اليهود يقومون بأعمال الكنس والنظافة نظير إعفائهم من الجزية»(١).

* القول الثاني: باني قبة الصخرة وجامعها هو الخليفة الوليد بن عبد الملك:

وهو أرجح الأقوال. ولقد أوقف الوليد خراج مصر لسبع سنين لتشييدهما. ويمكن الجمع بينهما بأن عبد الملك أمر بالبناء، أو بدأ البناء

---

(١) «القدس» ص(٩٧).

في عصره، وتم في عصر الوليد.

وقبة الصخرة من أروع ما وصل إليه المجهود الإنساني في فنّ العمارة.

* في عهد سليمان بن عبد الملك:

لما وَلِي سليمان بن عبد الملك الخلافة بعد أخيه الوليد في سنة ٩٦هـ أتى بيت المقدس، وأتته الوفود بالبيعة فلم ير وفادة كانت أهنأ من الوفادة إليه. ولقد ترك في دمشق أخاه الأصغر، وحضر إلى القدس، وهو ينوي أن يجعلها عاصمة للخلافة الإسلامية، ثم عدل عن ذلك.

وذكر مجير الدين في «تاريخه» أن المكلّفين على عهده بإنارة المسجد الأقصى كانوا من الخدم اليهود، إلى أن تولىّ الخليفة عمر بن عبد العزيز ففصل اليهود من هذه الأعمال، وجعل خدم الحرم جميعًا من المسلمين[1].

* من مرّ بالقدس أو سكنها أو مات بها من أعيان الأمة وصالحيها:

القدس معدن الأنبياء ومهبط الوحي والملائكة، ما من شبر فيها إلا وشرف بمرور ملك، أو نبي أو رسول، درج في ربوعها الصديقون والصالحون، وتعطّرت أنفاسها بعبق الوحي الإلهي.

قام فيها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب عليهم السلام، ودخلها يوشع بن نون، ثم قام فيها داود وسليمان، وإلياس، واليسع، وأشعيا، وأرميا، وحزقيال، ودانيال، وزكريا، ويحيى، وعيسى بن مريم صلوات ربي وسلامه عليهم، وشعّت فيها أنوار خاتم المرسلين ﷺ.

---

(١) «القدس مدينة اللّه أم مدينة داود» ص(٩٨).

قال ابن الجوزي: «وفي الأرض المقدسة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام»(١).

* ذكر من دخلها أو مرّ بها أو سكنها أو تُوفِّي بها من الصحابة والتابعين وصالحي الأمة وهذا من فضلها:

نذكر هذا حتى لا يفرّط فيها من يرعى لهؤلاء ودًّا ويحفظ لهم عهدًا.

قد يهون العمر إلا لحظة　　　وتهون الأرض إلا موضعا

* من دخلها من أعيان الصحابة:

عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ:

أهذه القدس والأقصى يزينها　　　مسرى النبي أفيها ساجد عمر

أم أورشليم يهوذا بات يحكمها　　　وهيكل الظلم في أحضانها نضر

وأبو عبيدة بن الجراح ـ رضي اللَّه عنه ـ انطلق يريد الصلاة ببيت المقدس، فأدركه أجله بفحل فتوفي بها.

وسعد بن أبي وقاص، وأبو الدرداء، وسعيد بن زيد، وعبد اللَّه ابن عمر، وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وأبو ذر، وسلمان الفارسي في رحلته بحثًا عن الحق قبل الإسلام، وخالد بن الوليد، ومعاوية بن أبي سفيان، وعياض بن تميم، وعبد اللَّه بن سلام، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو هريرة، وأبو أمامة، وسكن بها وبدمشق، وأبو مسعود الأنصاري عتبة بن عمرو البدري، وعقبة ابن عامر الجهني، وأبو جمعة الأنصاري حبيب بن سباع، وعبادة

(١) «فضائل القدس» لابن الجوزي ص(٩٧) ـ دار الآفاق بيروت.

ابن الصامت: سكن بيت المقدس، ودفن ببيت المقدس.

- وشدّاد بن أوس ابن أخي حسان بن ثابت ممن أُوتي العلم والحلم، ومات ببيت المقدس.
- وأبو ريحانة مولى رسول اللّه ﷺ سكن بيت المقدس، وكان يقضي في المسجد الأقصى.
- وتميم بن أوس الداري، وكان أميرًا على بيت المقدس، وهو الصحابي الذي تفرّد برؤية المسيح الدجال.
- والشريد بن سريد، وابن أبي جدعا التميمي.
- وفيروز الديلمي قاتل كذّاب اليمن الأسود العنسي.. سكن بيت المقدس.
- وذو الأصابع التميمي سكن بيت المقدس، وأبو محمد النجاري.
- وأبو أبي بن أم خزام آخر الصحابة موتًا ببيت المقدس.

والذي أعقب من الصحابة ببيت المقدس عبادة بن الصامت، وشدّاد ابن أوس، وسلامة بن قيصر[١]، وفيروز الديلمي، والذي لم يعقب أبوريحانة، وذو الأصابع، وأبو محمد النجاري.

- ومنهم واثلة بن الأسقع تحوّل إلى بيت المقدس ومات به.
- ومحمود بن الربيع.
- وأم المؤمنين صفية بنت حيي ـ رضي اللّه عنها ـ.
- وعصيف بن الحارث ـ رضي اللّه عنهم جميعًا ـ.

---

(١) أنكر أبو زرعة وابن عبد البر أن تكون له صحبة.

* **وأما من التابعين ومن بعدهم:**

فأويس القرني، وكعب الأحبار، وعبيد عامل عمر بن الخطاب، وعمير بن سعيد، ويعلى بن شداد، وجبير بن نفير الحضرمي، وأبو نعيم المؤذن أول من أذّن ببيت المقدس، وأبو سلام الحبشي، وخالد بن معدان الكلاعي العبد الصالح، وعبد الرحمن بن تميم الأشعري، وأم الدرداء كانت تجالس المساكين ببيت المقدس.

وأبو العوام مؤذن بيت المقدس، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد اللَّه بن محيريز، وهاني بن كلثوم العُبّاد الربّانيون، وعبد الملك بن مروان، والوليد بن عبد الملك.

قال إبراهيم بن أبي عبلة: رحم اللَّه الوليد، وأين مثل الوليد كان يعطيني قصاع الفضة فأقسمها على قُرّاء بيت المقدس، وسليمان بن عبدالملك، وعمر بن عبد العزيز، ومحارب بن دثار، وإبراهيم بن أبي عبلة، وعبد اللَّه بن فيروز المقدسي، ورجاء بن حيوة، وعبد اللَّه بن فيروز المقدسي، ومحمد بن واسع، ومالك بن دينار، وعبد الواحد بن زيد، وسليمان التيمي، ورابعة العدوية قبرها بظاهر القدس الشريف على رأس طور زيتا.

وأبو الحسن النهراني الأندلسي كان مقيمًا ببيت المقدس، وإبراهيم ابن محمد بن يوسف، وأبو عقبة الخوّاص عباد بن عباد الأرسوفي، وثور بن يزيد، وإبراهيم بن أدهم، والليث بن سعد، وأبو جعفر المنصور، والمهدي الخليفة العباسي ووكيع بن الجراح، ومحمد بن إدريس الشافعي، والمؤمل بن إسماعيل البصري، وصالح بن يوسف أبو شعيب المقنع العبد الصالح، وبشر بن الحارث الحافي.

◻ قال ـ رحمه اللَّه ـ: ما بقي عندي من لذات الدنيا إلا أن أستلقي على جنبي تحت السماء بجامع بيت المقدس. وقيل له: لم يفرح الصالحون ببيت المقدس؟ قال: لأنها تذهب الهم، ولا تستعلي النفس بها»[1].

وعبد اللَّه بن عامر العامري، وأبو الحسن علي بن محمد الجلا البغدادي، والإمام الطرطوشي، والإمام الغزالي، وأبو الغنايم محمد بن علي بن ميمون الكوفي، والإمام أبو بكر محمد بن عبد اللَّه المقري الأشبيلي الحافظ، وأبو عبد اللَّه الديباجي، وأبو الحسن الطوسي، وأبو محمد عبد اللَّه بن الوليد بن سعد بن بكر الأنصاري الفقيه المالكي، وأبو بكر محمد بن أبي بكر الجرجاني، وأبو الحسن علي بن محمد المغافري، وأبو سعد بن عبدالكريم السمعاني، والملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، والشيخ الزاهد أبو عمر المقدسي، والضياء المقدسي، والعماد المقدسي، وابن قدامة المقدسي شيخ الحنابلة وصاحب «المغني»، والحافظ الأثري عبدالغني المقدسي...

ولو أردنا أن نترجم لكل من نسب إلى بيت المقدس لاحتجنا إلى مجلدات، ولو اكتفينا بتقديم إحصاء لمن نُسب إلى بيت المقدس ممن عمل، أو أثّر، أو تأثّر بالعيش في بيت المقدس، معتمدين على ما أحصاه مجير الدين الحنبلي في كتابه «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»، وغيره من المراجع لوجدنا:

١ ـ الصحابة الذين سكنوا القدس، أو زاروه، أو شدّوا الرحال إليه

---

(١) «إتحاف الأخِصّا» (٢/ ٥١).

يزيد عددهم على عشرين صحابيًّا.

٢ ـ من التابعين ومن تبعهم حتى الاحتلال الصليبي حوالي ثمانين عالمًا.

٣ ـ بعد الفتح الصلاحي إلى سنة ٩٠٠هـ حوالي ستمائة عالم.

٤ ـ في العصر التركي بعد سنة ٩٠٠هـ إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري حوالي مائة عالم.

٥ ـ وفي القرن الرابع عشر:

يوسف بن ضياء الخالدي، وروحي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين، ومحمد بن كامل بن طاهر الحسيني مفتي القدس، وخليل جواد الخالدي، وعبد القادر الحسيني بطل معركة القسطل سنة ١٩٤٨م، وعارف العارف المؤرخ المشهور والحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين، وعز الدين القسام.

هذه الأرض المباركة الولود ليست بعقيم.

يا قدسُ رجالك ما ماتوا   ما عقمت أم الفتيان

* بيت المقدس في العصر العباسي:

في سنة ١٣٠هـ أواخر العهد الأموي، حدث زلزال، سقط بسببه شرقي المسجد وغربيّه.

ولما زار الخليفة أبو جعفر المنصور مدينة القدس سنة ١٤١هـ قيل له: «يا أمير المؤمنين قد وقع شرقي المسجد وغربيه زمن الرجفة في سنة ثلاثين ومائة فلو أمرتنا ببناء هذا المسجد وعمارته؟ فقال: ما عندي شيء من المال، ثم أمر بقلع الصفائح الذهبية والفضية التي كانت على الأبواب

فقلعت وضُرِبت دنانير ودراهم وأُنفقت عليه حتى فرغ منه»[١] .

❑ قال ابن كثير: وكان المسجد طويلاً، فأمر أن يُؤخذ من طوله ويُزاد في عرضه، وكان طول المسجد من القبلة إلى الشمال سبعمائة وستون ذراعًا وعرضه أربعمائة وستون ذراعًا[٢] .

❑ وفي سنة ١٥٨هـ ـ ٧٧٤م وقع البناء الذي أقامه المنصور، بسبب زلزال آخر. فأمر الخليفة المهدي بإعادة بنائه، فبُني المسجد هذه المرة بعناية كبيرة، وأُنفقت عليه أموال طائلة.

روى صاحب «الأنس الجليل» في كتابه (١/ ١٨١): «لما قدم المهدي يريد بيت المقدس دخل مسجد دمشق، ومعه أبو عبيد اللَّه الأشعري كاتبه، فقال: يا أبا عُبيد اللَّه! سبقتنا بنو أمية بثلاث. فقال: وما هي يا أمير المؤمنين، فقال: بهذا البيت ـ يعني مسجد دمشق ـ ولا أعلم على ظهر الأرض مثيله، ونُبل الموالي، فإن لهم موالي ليس لنا مثلهم. وبعمر ابن عبد العزيز لا يكون واللَّه فينا مثله أبدًا، ثم أتى بيت المقدس، فدخل قبة الصخرة، ثم قال: يا أبا عبيد اللَّه، وهذه رابعة».

❑ وفي أواخر سنة ٢١٦هـ. زار الخليفة المأمون العباسي، بيت المقدس في طريقه إلى مصر، وأمر بترميم ما يحتاج إلى إصلاح في منشآت المسجد الأقصى، وكانت قد حصلت زلزلة ثالثة بعد إصلاح المهدي، فأصاب المسجد خراب، فأمر المأمون بتوزيع بنائه على أمراء الأطراف وسائر القوّاد، وقام بالبناء قائده عبد اللَّه بن طاهر بعد سنة ٢١٠هـ، وظل

(١) «إتحاف الأخصا» ص(٢٤٥).

(٢) «البداية والنهاية» (٨/ ٢٨١).

المسجد الأقصى ومسجد الصخرة محميّان تحت كنف دولة العباسيين حتى انتهى عصرها.

* بيت المقدس في العصر الطولوني ثم الإخشيدي ثم الفاطمي العبيدي:

دخلت فلسطين في حكم الطولونيين من سنة ٢٦٤هـ حتى سنة ٢٩٢هـ: ٨٧٨م ـ ٩٠٥م ـ وعادت إلى عهد الولاة العباسيين من سنة ٢٩٢ هـ حتى سنة ٣٢٣ هـ ثم دخلت تحت حكم الإخشيديين من سنة ٣٢٣ هـ حتى سنة ٣٥٨هـ. وفي مدة حكم هاتين الأسرتين، لم يذكر التاريخ لهم مآثر في بيت المقدس أو في المسجد الأقصى؛ لأن الفتن والأحداث والقتال لم يتركهم يتفرّغون لبناء المآثر. وكان للقدس منزلة خاصة عند الإخشيديين، بدليل أن ملوكهم جميعًا دُفنوا فيها بناء على وصاياهم.

◻ وفي سنة ٣٥٩هـ وقعت القدس تحت طائلة الحكم العبيدي الفاطمي في عهد المعز لدين اللَّه، وعمل هؤلاء العبيديون الشيعة على تقريب اليهود والنصارى في فلسطين، وتزاوجوا منهم، واتخذوا منهم الوزراء والمستشارين والأطباء، وازدادت هذه الظاهرة في عهد العزيز باللَّه الذي تزوّج من امرأتين نصرانيتين، كانت إحداهما أم ولده الذي تولى الحكم سنة ٣٨٦هـ ولُقِّب بالحاكم بأمر اللَّه الفاطمي، ولقد عمل هذا الخبيث على تقريب النصارى أكثر وأكثر، ولا عجب من أمثاله في ذلك، فقد كانت أمه وجاريته نصرانيتين، وتلقى تربيته وعلمه على أيدي النصارى، وعيّن شقيق جاريته النصراني أسقفًا بالقدس، وكان وزيره (عيسى بن نسطور) نصرانيًّا، وطبيبه (أبو الفتح منصور بن معشر)

نصرانيًّا، وكان نائبه في سوريا يهوديًّا. ولكن على رغم كل ذلك عاد الخليفة العبيدي (الحاكم بأمر الشيطان) فانقلب على النصارى وعلى اليهود، ثم رجع مرة أخرى إلى تقريبهم واسترضائهم.

❑ وفي عهد الخليفة العبيدي الظاهر والخليفة المستنصر باللَّه أُبرمت المعاهدات بين الدولة الفاطمية والدولة الرومية البيزنطية النصرانية، وأدّى هذا إلى رواج وانتعاش الوجود النصراني في المدينة المقدسة، وفتح ذلك أعين النصارى على الاستيلاء على هذه الأرض فيما بعد.

❑ وفي عام ٤٦٥هـ بعث ألب أرسلان السلجوقي بجيش إلى فلسطين استطاع به أن ينتزعها من يد الدولة الفاطمية وأقام الدعوة العباسية بالقدس.

❑ ثم استعاد الفاطميون القدس من السلجوقيين مرة أخرى عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م في زمن الخليفة الفاطمي المستعلي باللَّه.

وكانت القدس وقتها بيد أميرين من السلاجقة ـ والصليبيون يومها في أطراف الشام ـ فجاء أمير الجيوش الفاطمي في هذه الأيام يحارب الأميرين ليرجع القدس إلى الحماية الفاطمية، وكان له ما أراد بعد أن قُتِل في هذا السبيل آلاف من المسلمين.

كان البيت المقدّس، لتاج الدولة تتش «السلجوقي» وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني، فلما ظفر الفرنج بالأتراك السلاجقة على أنطاكية وقتلوا فيهم. وضعفوا، وتفرّقوا.. فلما رأى المصريون «الفاطميون» ضعْف الأتراك ساروا إليه، مُقَدَّمُهم الأفضل بن بدر الجمالي (أمير الجيوش) وحصروه وبه الأميران سقمان، وأليغازي، ابنا أرتق وابن عمّهما سونج، وابن أخيهما ياقوتي، ونصب عليه نيّفًا وأربعين منجنيقًا،

فهدموا مواضع من سوره، وقاتلهم أهل البلد، فدام القتال والحصار نيّفًا وأربعين يومًا، وملكوه بالأمان في شعبان سنة ٤٨٩هـ. . . واستناب المصريون في القدس رجلاً يعرف بافتخار الدولة»[١] .

* الاحتلال الصليبي للقدس ٤٩٢ـ٥٨٣هـ (١٠٩٩ـ١١٨٧م):

□ سقطت القدس في أيدي الصليبيين في وقت كان المسلمون فيه أضعف ما كانوا.

في بغداد كانت الخلافة العباسية في أضعف أحوالها لا حول لها ولا قوة.

وتفككت الدولة السلجوقية وانقسمت إلى خمس دول سلجوقية متنافسة متصارعة.

وعلا أمر العبيديين المبتدعة وفشا الفكر الباطني في الشام وساد أهل البدع.

وتفرقت البلاد إلى دول صغيرة قد لا تزيد رقعة الواحدة على قلعة وناحية من الأرض تحيط بها، وكان هؤلاء الحكام دائمي التنازع والعدوان على بعضهم البعض.

ولم يكن لأحدهم همٌّ إلا في بطنه وفرْجه كما يقول أبو شامة في كتاب الروضتين (١/ ١٤)، مما سهّل على الصليبيين دخول البلاد.

سيذكر التاريخ أن بطرس الناسك اجتمع بشمعون بطريرك القدس وشكى[٢] له الأول أحوال المسيحيين وأجابه بطرس قائلاً: «اعلم أيها

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (٨/ ١٨٩).

(٢) على حد زعمهم الباطل كما يصوره وليم رئيس أساقفة صور وكبير مستشاري ملك القدس في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية» ص(١٦٣).

الأب المقدس أنه لو كان لدى الكنيسة في روما، والملوك في الغرب أي مخبر حذر وموثوق يخبرهم بالمصائب التي تكابدونها[١] لكانوا سيحاولون حتمًا تقديم العلاج بالسرعة الممكنة وبالقول والفعل لمصاعبكم هذه. ولذلك اكتب أنت بكل اجتهاد إلى البابا العظيم وإلى الكنيسة في روما، واكتب أيضًا إلى ملوك وأمراء الغرب، وصادق على الرسالة بخاتم سلطانك الكهنوتي، وبالحقيقة ـ إنني لمداواة روحي ـ لن أتوانى عن الاضطلاع بهذه المهمة...»[٢].

وهكذا كتب بطريرك القدس الخائن الرسالة وسلّمها لبطرس الناسك.

وجاب بطرس الناسك إيطاليا بأجمعها، وعبر جبال الألب، وزار جميع ملوك أوربا مؤكدًا وموبخًا ومنتقدًا، واستقبل البابا أوربان بطرس الناسك، «ووعده مقسمًا بالرب الذي هو عبد له بأن يؤازره في المهمة التي جاء من أجلها كلما سنحت له الفرصة»[٣].

دعا البابا أوربان الثاني الجماهير المسيحية في مؤتمر كليرمونت سنة ١٠٩٥م إلى الحروب الصليبية قائلاً:

«يا شعب الفرنجة! شعب اللّه المحبوب المختار! لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسًا لعينًا أبعد ما يكون عن اللّه قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين، وخرّبها بما نشره فيها من أعمال السلب وبالحرائق، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذّبوهم أشنع

---

(١) وهذا من كذب الأسقف وليم.

(٢) «تاريخ الحروب الصليبية» ص(١٦٤).

(٣) «تاريخ الحروب الصليبية» ص(١٦٧).

تعذيب، وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن يدنّسوها برجسهم، ولقد قطّعوا أوصال مملكة اليونان فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين.

على من تقع تبعة الانتقام لهـذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع، إذا لم تقع عليكم أنتم ـ أنتم يا من حـباكم اللّٰه أكثر من أي قـوم آخرين بالمجد فـي القتال وبالبـسالة العظـيمة، وبالقـدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟

ألا فليكن من أعمـال أسلافكم ما يُقوّي قلوبكم ـ أمـجاد شارلمان وعظمتـه، وأمجاد غـيره من ملوككم وعظمتـهم ـ فليثر همـّتكم ضريح المسـيح المقـدس ربنا[1] ومنقذنـا، الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجـسة، وغيره من الأماكن المقدسة التي لُوِّثت ودُنِّست، لا تدعوا شيئًا يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم، ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها من جمـيع جوانبها البحار وقلل الجبـال، ضيّقة لا تتّسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضًا، ويلتهم بعـضكم بعضًا، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية.

طهروا قلـوبكم إذن من أدران الحقد، واقـضوا على مـا بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقـدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث[2] وتملكوها أنتم، إن أورشليم أرض لا نظير لها في

---

(١) ﴿كبرت كلمة تخـرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا﴾. ما المسيح بن مريم إلا عبد اللّٰه ورسوله، رفعه اللّٰه إليه وسيعود آخر الزمان ليحطم الصليب ويقتل الدّجال ويضع الجزية.

(٢) ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾.

ثمارها، هي فردوس المباهج، إن المدينة العظيمة القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلّصوا من ذنوبكم، وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجد لا يفنى في ملكوت السماوات»[١] .

□ يقول وليم رئيس أساقفة صور في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية» بعض ما جاء في موعظة البابا ـ حسب روايته ـ:

«إن مهد عقيدتنا[٢] وموطن ربنا وأم الخلاص يستولي عليها الآن بكل قوة شعب بدون رب، إنه ابن لجارية مصرية[٣] ، وهو يفرض شروطًا مفرطة في شدتها على الأبناء الأسرى للمرأة الحرة[٤] ، وذلك على الرغم من أنه هو المستحق لهذه الأحوال. . .

لقد اضطهد عرق السراسنة[٥] الشرير التابع للمعتقدات الخرافية[٦] النجسة لسنوات عديدة وبكل عنف واستبداد ـ الأماكن المقدسة حيث ارتكزت أقدام ربنا، وأخضع المؤمنين[٧] لرغباته، وحكم بالعبودية عليهم، ولقد دخلت الكلاب الأماكن المقدسة، وجرى تدنيس المقدسات، وإذلال الناس عبدة الرب. . .

---

(١) انظر: «قصة الحضارة» لول ديورانت (١٥/ ١٥ ـ ١٦) الترجمة العربية بقلم محمد بدران، وكتاب «وثائق الحروب الصليبية» للدكتور محمد ماهر حمادة مؤسسة الرسالة.

(٢) أي: القدس.

(٣) أي: المسلمون باعتبار أن أمهم هاجر أم إسماعيل عليه السلام.

(٤) أي: سارة أم إسحاق عليه السلام.

(٥) أي: العرب المسلمون.

(٦) يقصدون بذلك الإسلام.

(٧) أي: النصارى.

إن معبد الرب الذي طرد منه ـ بغيرته ـ الذين باعوا واشتروا، حتى لا يصبح بيت أبيه مغارة للصوص، قد جعل بيتًا للشياطين...

إن مدينة ملك الملوك التي نقلت إلى الآخرين مبادئ عقيدة عصماء[1] تُدفَعُ على الرغم من إرادتها لتكون خاضعة لدعاوى الشعوب المنحطّة. كما أن كنيسة القيامة المقدسة مكان الاستراحة الأخير للرب النائم تتحمل حكمهم، وقد دنّستها قذارة الذين ليس لهم نصيب في القيامة، بل مقدّر عليهم أن يُحرقوا للأبد كالقش بألسنة النيران السرمدية..

لنذهب إلى نجدة إخواننا لنقطع قيودهم ولنطرح عنهم ربطهم، اذهبوا وليكن الرب معكم، وجّهوا أسلحتكم التي لطّختموها بشكل محرم في ذبح بعضكم بعضًا إلى أعداء العقيدة وأعداء اسم المسيح...

عليكم أن تكبحوا بكراهية قويمة غطرسة الكفرة[2] الذين يحاولون استعباد الممالك والإمارات والقوى، وأن تهاجموا بكل قوتكم أولئك العاقدي العزم على تدمير الاسم المسيحي، وإلا فسيحدث أن كنيسة الرب التي تكابد الآن من نير العبودية المجحفة ستعاني خلال فترة قصيرة من خسارة العقيدة وستنتصر خرافات الوثنيين. ولقد رأى بعضكم بأم عينيه هذه الأشياء التي نتحدث عنها الآن، ويعرف نوع المحنة التي يعيش إخواننا فيها، وإن كتابهم الذي أحضره باليد بطرس الرجل المبجّل الموجود معنا هنا ينطق بمحتوى هذه الرسالة ذاتها.

---

(١) كذبوا... بل هو الكفر الصراح الموجب للخلود في النار ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدًا. أن دعوا للرحمن ولدا﴾.

(٢) أي: المسلمين.

وبناء عليه نقوم واثقين برحمة الرب، وبسلطان الرسل المباركين بطرس وبولص بمنح المسيحيين المؤمنين الذي يحملون السلاح ضد الملحدين ويتولون القيام بأعباء هذا الحج مغفرة للعقوبات المفروضة عليهم بسبب خطاياهم، وليثق الذين سيرحلون إلى هناك بتوبة صادقة أنهم سيلاقون التكفير عن آثامهم وسيجنون ثمار الجزاء السرمدي. ونضع في الوقت نفسه تحت حماية الكنيسة وحماية بطرس وبولص المباركْينِ جميع الذين سيباشرون هذه المهمة بحماسة الإيمان ويتولون قتال الملحدين..»[١] إلى آخر ما جاء في موعظته.

يقول أسقف صور: «ويمكن القول بالفعل بأن قول الرب كان يتحقق حيث يقول: «ما جئت لأُلقي سلامًا بل سيفًا»[٢].

حيث انفصل الأزواج عن زوجاتهم، والزوجات عن أزواجهن، والآباء عن أبنائهم، والأبناء عن آبائهم، فروابط الحب كلها لم تصمد أمام هذه الحماسة، وخرج العديد من الرهبان من أديرتهم، كما تركوا صوامعهم، حيث كانوا قد عزلوا أنفسهم لخدمة الرب»[٣].

واندفعت الحشود الكافرة الموتورة يدفعها الحقد الصليبي، واستطاعوا أن يؤسسوا في بلاد الشام ثلاث إمارات صليبية:

- إمارة الرها أُسست في ١٠/ ٣/ ١٠٩٨م وكان سقوط الرها على يد بلدوين.

---

(١) «تاريخ الحروب الصليبية» ص(١٦٩ ـ ١٧٣).

(٢) متى: (١٠/ ٣٤).

(٣) «تاريخ الحروب الصليبية» ص(١٧٤).

□ وإمارة أنطاكية أُسست في حزيران من السنة نفسها، وكان سقوط أنطاكية على يد بوهيموند.

وأرسل خليفة الفاطميين الخائن أفرادًا من أسرته يعرض على الصليبيين دعمه العسكري وموارده ويرجوهم أن يطيلوا الحصار على أنطاكية، وأن لا يتركوها حتى تقع في أيديهم..

□ هؤلاء الصليبيون لا نحاكمهم إلا من خلال كلامهم.. ما فعلوا بين معرة النعمان وأنطاكية أكلوا لحوم المسلمين.

قال وليم أسقف مدينة صور في كتابه: «تاريخ الحروب الصليبية» ص(٣٨٣): في حديثه عن جيش الصليبيين: «ومن المؤكد أيضًا ـ وعلى الرغم من أن هذا غير معقول تمامًا ـ أن الكثيرين قد هووْا بسبب نقص الطعام المناسب، إلى مهاوٍ سحيقة إلى درجة أنهم أكلوا اللحم البشري».

□ وأخذوا القدس وأسسوا فيها إمارة سنة ١٠٩٩م.

ومما يزيد الأمر سوءًا، أن أمراء القلاع والمدن من المسلمين، كانوا يتعاونون مع هؤلاء الغزاة، ويقدّمون لهم الأموال وهم في طريقهم إلى القدس.

□ وفي الطريق إلى القدس استولى الصليبيون على قيسارية حاضرة فلسطين الثانية، وأخذوا أرسوف ويافا ثم وصلوا إلى اللد، واحتلوا الرّملة ثم حاصروا القدس.

*** حصار القدس وسقوطها والمذابح التي تمت بها:**

استناب الفاطميون في القدس رجلاً يُعرف بافتخار الدولة.. فقصده الفرنج بعد أن حصروا عكا فلم يقدروا عليها، فلما وصلوا إلى

القدس حصروه نيّفا وأربعين يومًا ونصبوا عليه بُرْجين، أحدهما من ناحية صهيون[١]، وأحرقه المسلمون وقتلوا كل من به، فلما فرغوا من إحراقه، أتاهم المستغيث بأن المدينة قد مُلِكت من الجانب الآخر، وملكوها من جهة الشمال، ضحوة نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢هـ. وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعًا يقتلون المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود[٢]، فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلّموه إليهم.. وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعُبّادهم وزهّادهم ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف»[٣].

* خيانة الفاطميين الزنادقة لبيت المقدس نسجّلها للتاريخ:

بدأ حصارُ مدينة القدس ٧/ ٦/ ١٠٩٩م، ودخل الصليبيون البلدة المقدسة ١٥/ ٧/ ١٠٩٩م. وعلى هذا فقد دام الحصار أكثر من شهر، وقد وصلت هذه الحملة إلى شمال سورية عام ٤٩١هـ ـ ١٠٩٨م، فبيْن دخول الحملة شمال سورية، إلى يوم دخولها القدس لا يقل عن عشرة أشهر. وفي شهر آذار ١٠٩٩م كانوا في طرابلس الشام. فحصار القدس لم يكن مفاجئًا لسلاطين الفاطميين أصحاب الألقاب الفخمة الفارغة.

ففي مصر: الخليفة المستعلي، وقائد جيوشها «أمير الجيوش الأفضل

(١) الحائط الجنوبي في السور.
(٢) محراب داود: بالقرب من باب الخليل في سور مدينة القدس في القلعة، وهو بعيد عن المسجد الأقصى.
(٣) «الكامل» لابن الأثير (٨/ ١٨٩).

ابن بدر الجمالي، ووزيرها الأفضل شاهنشاه، وفي القدس أميرها افتخار الدولة... أي والله!!!، ورحم الله الشاعر الأندلسي حين يقول:

مما يزهّدني في أرض أندلسٍ ألقاب مُعْتضدٍ فيها ومعتمدِ
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهرِّ يحكي انتفاخًا صولة الأسدِ

ماذا كان من افتخار الدولة يوم خرج من القدس؟:

أدرك افتخار الدولة عند العصر - من اليوم نفسه الذي دخل فيه الصليبيون - أن كل شيء قد ضاع، وأنه لا أمل في المقاومة فانسحب، بل التجأ إلى برج داود، الذي عرض أن يُسَلِّمه إلى ريموند مع مبلغ من المال، مقابل الإبقاء على حياته، وحياة حرسه الخاص، فقبل ريموند الشروط، واحتل البرج، فخرج من المدينة تحت الحراسة افتخار الدولة مع حرسه، وانحازوا إلى الحامية الإسلامية بعسقلان.

.. إيه يا عار الدولة بل عار الدنيا ماذا فعلت؟

تُسلم الحصن، وتدفع المال، لتخرج سالمًا مع حرسك، وتترك المسلمين يُقتلون، هكذا تكشف المصائب عن فسادكم وزندقتكم وأنكم أبدًا الخنجر في ظهر الأمة، هلاّ جرّدت الحامية العسقلانية التي هي على مرمى حجر من القدس.

أين الحميّةُ والنفسُ الأبيّةُ إذْ سَامُوكَ خُطّة خَسْفٍ عارها يصمُ
هلاّ أَنِفْتَ حياءً أوْ مُحافظةً مِن فِعْلِ ما أنكرتْه العُرْبُ والعَجمُ
أسلمْتنا وسيوفُ الهنْد مُغْمَدةٌ ولم يُروِّ سِنان السمهريّ دمُ
وكنتُ أحْسَبُ مَنْ والاك في حرم لا يعتريه به شَيْبٌ ولا هَرَمُ
وأن جارك جارٌ للسموأل لا يخشى الأعادي ولا تغتالُه النّقَمُ

هَبْنا جَنَيْنا ذُنُوبًا لا يُكَفِّرها عُذْرٌ فماذا جنى الأطفال والحُرَمُ؟[١]

□ بعد أن غنم افتخار الدولة حياته بالهرب وتبيّن للمسلمين انهيار أسباب دفاعهم، ولّوا الأدبار نحو الحرم الشريف، حيث قبّة الصخرة والمسجد الأقصى، ووطدوا العزم على أن يتخذوا من المسجد معقلهم الأخير، ولم يكن لديهم الوقت الكافي لأن يجعلوه صالحًا للدفاع، فانقضّ «تانكرد» أثناء احتشادهم بداخل المسجد وفي أعلاه، فبادروا بالتسليم، وأخذوا علمه، ورفعوه فوق المسجد، ولكن «تانكرد» أخذ يعيث فساداً في قبة الصخرة يدمّر وينهب ما يشاء... ولم يكن علم تانكرد عاصمًا للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل، ففي الصباح الباكر من اليوم التالي (الجمعة ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ ـ تموز ١٠٩٩م) اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين.

وحينما توجّه «ريموند آجيل» في الضحى لزيارة ساحة المسجد، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبته. وساحة المسجد الأقصى تتسع لأكثر من مائة ألف مصلّ، فإذا أصبح ملجأً، فإنه يتسع لمئتي ألف إنسان.

وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعُبّادهم وزُهّادهم، ممن فارق الأوطان، وجاور بذلك الموضع الشريف. وأخذوا من عند الصخرة نيّفًا وأربعين قنديلاً من الفضة، وزن كلّ قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنّوراً من الفضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي، وأخذوا من

(١) الأبيات لأسامة بن منقذ يخاطب بها أحد أصحاب الألقاب في زمانه.

القناديل مائة وخمسين قنديلاً، ومن الذهب نيفًا وعشرين قنديلاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء[١] .

◻ وعندما احتل الصليبيون القدس غيّروا معالم المسجد، فاتخذوا جانبًا منه كنيسة، وجانبًا منه لفرسان الاسبتارية. وأضافوا إليه من الناحية الغربية بناءً جعلوه مستودعًا لذخائرهم، وحوّلوا قبة الصخرة إلى كنيسة.

◻ قال «إسترانج» في كتابه «فلسطين في العهد الإسلامي»: استولى الصليبيون في ١٤تموز ١٠٩٩م على المدينة المقدسة، واستولى فرسان الهيكل على منطقة الحرم، وقد اشتق هؤلاء الفرسان اسمهم من قبة الصخرة التي ظنّها المسيحيون هيكلاً منذ أيام المسيح، فدعوا أنفسهم فرسان الهيكل، وقد أحدث الهيكليون تغييرات كثيرة في المسجد الأقصى وفيما جاوره من أجزاء منطقة الحرم، لكنّهم لم يمسّوا قبة الصخرة بسوء، فبنوا مستودع أسلحتهم مكان الأروقة المعمّدة التي وصفها ناصر خسرو، وبنوا إصطبلات خيولهم في أجزاء الزاوية الجنوبية الشرقية لمنطقة الحرم غربي مهد عيسى. وربما استعملوا البوابة الثلاثية أو المنفردة كمخرج لهم من تلك الأقبية»[٢] .

◻ يقول عارف العارف:

«إن الإفرنج لم يغيّروا شيئًا من بناء مسجد الصخرة سوى أنهم قلبوه إلى كنيسة، ووضعوا به الصور والتماثيل، وأنشئوا على الصخرة مذبحًا[٣] كما أنشئوا حول الصخرة سياجًا من الحديد المشبّك، وكسوا

---

(١) انظر: «الكامل» لابن الأثير أحداث سنة ٤٩٢هـ.

(٢) «فلسطين في العهد الإسلامي» لإسترانج ـ الترجمة العربية ص(١١٥).

(٣) «مذابح الكنائس»: هي المواضع التي يقيم عليها الكهنة القدّاس.

الصخرة بالرخام، ونصبوا فوق القبّة صليبًا كبيرًا.

وأما المسجد الأقصى، فقد غيروا الكثير من معالمه، واستعملوه لأغراضهم الدينية والأهلية والحربية، فاتخذوا جانبًا منه كنيسة، والجانب الآخر مسكنًا لفرسان الهيكل، وأضافوا إليه من الناحية الغربية بناءً جديدًا، استعملوه مستودعًا لأسلحتهم. وأما السراديب القديمة التي كانت تحت الأقصى، ويسميها المقدسيون: الأقصى القديمة فقد اتخذها الصليبيون، إسطبلاً لخيولهم.

وكم من مسجدٍ جعلوه دْيرًا ... علىٰ محرابه رُسِم الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوف ... وتحريق المصاحف فيه طيب

* ماذا فعل المسلمون الغافلون يومئذ بعد أن ضاعت قبلتهم الأولى؟

❑ قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٢/ ١٦٦ ـ ١٦٧):

«لمّا كان ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة، أخذت الفرنج ـ لعنهم اللَّه ـ بيت المقدس ـ شرّفه اللَّه ـ، وكانوا في نحو ألف ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ وتبّرُوا ما علوا تتبيرًا...

وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى العراق مستغيثين على الفرنج إلى الخليفة والسلطان، منهم القاضي أبو سعد الهروي، فلما سمع الناس ببغداد هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا، وقد نظم أبو سعد الهروي كلامًا قُرئ في الديوان، وعلى المنابر، فارتفع بكاء الناس، وندب الخليفة الفقهاء إلى الخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس

فلم يفد شيئًا، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون».

◻ وقال ابن الأثير في «الكامل» (٨/ ١٨٩):

«ورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صُحْبة القاضي أبي سعد الهروي فأوردوا في الديوان كلامًا أبكى العيون، وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكَوا، وأبْكَوا، وذكروا ما دَهَم المسلمين بذلك الشريف المعظّم من قَتْل الرجال، وسبْي الحريم والأولاد، ونهب الأموال.. فلشدة ما أصابهم أفطروا!!!!

قال: فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمد الدامغاني... وفلان، وفلان فساروا إلى حلوان «بالعراق» فبلغهم قتْل مجد الملك البلاساني فعَادوا من غير بلوغ أرب، ولا قضاء حاجة، واختلف السلاطين فتمكّن الفرنج من البلاد».

أفطروا في رمضان فلا أرقأ اللَّه لهم دمْعًا، ولا أقرّ لهم عينًا إن كانوا هؤلاء حماة الإسلام يومئذ كان لزامًا أن تسقط القدس على أيامهم والتاريخ يُعيد نفسه.

نستخذي في وهن وجبن وذل.

مَا لي ألوم عَدوِّي كلما نَزَلَتْ ... بيَ المصائب أوْ أرْميه بالتُّهَمِ
وادَّعي أبدًا أني البريء وما ... حَمَلْتُ في النفس إلا سَقْطة اللَّمَمِ
أنا الملوم! فعهد اللَّه أحمله ... وليس يحمله غيري من الأمم[1]



(١) من ملحمة الغرباء للدكتور عدنان النحوي ـ دار النحوي للنشر والتوزيع.

قال أبو المظفر الأبيوردي في سقوط بيت المقدس:

مَزَجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبقَ منا عُرْضَةً للمَراجم[(١)]

وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... إذا الحرب شبّت نارها بالصوارم

فإيهًا [(٢)] بني الإسلام إن وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم

أتهويمةً في ظلِّ أمن وغبطة ... وعيش كنُوّار الخميلة ناعم

وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها ... على هفوات أيقظت كلَّ نائمِ

وإخوانكم بالشام يُضحي مقيلُهم ... ظهور المذاكي أوبطون القشاعمِ[(٣)]

تسومهم الروم الهوانَ وأنتمُ ... تجرّون ذيْل الخفض فِعْل المُسالمِ

وكم من دماء قد أُبيحت ومن دُمًى [(٤)] ... تُواري حياءً حسنها بالمعاصم

بحيث السيوف البيض مُحْمَرةُ الظُّبا ... وسمرُ العوالي دمياتُ اللهاذمِ

وبين اختلاس الطعن والضرب وقفةٌ ... تظل لها الولدان شيبَ القوادم

وتلك حروبٌ من يَغِبْ عن غمارها ... ليسلمَ يقرَعْ بعدها سِنّ نادم

---

(١) عرضة: الهمة، ويقال: جعلتُه عرضة لكذا: أي: نصبته له. وهو عرضة للناس، أي: لا يزالون يقعون فيه. والمراجم: الكَلِم القبيحة، يُقال: تراموا بالمراجم، أي: بالقبيح من الكلام، وكأن الشاعر يقول: لقد ذُمّت جميع صفاتنا، فلم يبق منها صفة للعيب.

(٢) إيهًا: اسم فعل أمر، بمعنى: اسكت وكُفّ، أي: كُفّوا عن الضعف. والذُّرى: جمع الذِّروة: المكان المرتفع والعلو، واستعاره هنا لِعلية القوم. والمناسِم: جمع مَنْسِم، وهو للإبل كالظفر للإنسان. ويبدو أنّه استعاره لعامة الناس، يريد أن الحرب لا تُبقي على أحد.

(٣) المذاكي: الخيل. والقشاعم: الصقور.

(٤) الدُّمَى: جمع دُمْية: تستعار للفتاة الحسناء.

سَلَلْنَ بأيدي المشركين قواضبًا ستُغمد منهم في الطُّلى والجماجم[١]

يكاد لهن المستَجِنُّ[٢] بطيبة ينادي بأعلى الصوت: يا آل هاشم

أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى رماحَهم والدين واهي الدعائم

ويجتنبون النار خَوفًا من الرَّدى ولا يحسبون العار ضَربة لازِم

أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى ويُغضى على ذل كُماة الأعاجِمِ

فليتهم إذْ لم يذودوا حَمِيّةً عن الدين ضنوا غَيرةً بالمحارم

وإن زَهِدوا في الأجر إذ حمِسَ الوغى فهلاّ أتوْهُ رغبةً في الغنائم

لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى[٣] فلا عطسوا إلا بأجدعَ راغمِ

دعوناكمُ والحربُ ترنو مُلحّة إلينا بألحاظِ النسور القشاعم

تراقبُ فينا غارة عربيَّة تُطيل عليها الروم عضَّ الأباهم

فإن أنتمُ لم تغضبوا بعد هذه رَمينا إلى أعدائنا بالجرائم



سيذكر التاريخ بالعار كل العار أسماء قادة من الصليبيين اشتركوا في سقوط بيت المقدس ومذابحها: غود فري دوق اللورين وأخوه يوستاس، وكونت فلاندرز، وكونت نورماندي، وتانكرد، وريموند.

* دخول القدس ومذبحتها بقلم عُبّاد الصليب:

يقول «وليم» أسقف صور في كتابه «تاريخ الحروب الصليبية»:

---

(١) الطُّلى: مفردها: الطلية والطلاة، أي: العنق.

(٢) المستجِنُّ بطيبة أي: المقبور في طيبة وهو رسول اللَّه ﷺ

(٣) البرى: التراب: يريد رغم أنفهم في التراب.

❑ قام غـود فري الدوق النبـيل والشهيـر، برفقـة أخيه يوسـتاس، بالخطوة الأولى إلى داخل المدينة وشجّعـا البقية ليتبعـاهما، وذلك عندما تم تعـديل الجسـر، وتبـعـهمـا على الفـور الأخوان النـبيـلان لودولف وغسلبرت وهمـا من أهالي مدينة تورناي، وممن يستحـقان الذكر للأبد، ثم لحقهما حشد من الفرسان والمشاة بعدد كبير جـدًا لدرجة أنه لم يعد بإمكان الآلة الحـربيـة أو الجـسر تحـمّل المزيد، وعندمـا أدرك العـدو أن المسيـحيين قد استـولوا على السور، وأن الدوق كان قد رفع رايتـه عليه هجروا الشرفات والأبراج ولجئوا إلى الشوارع الضيقة.

وما إن أدرك شعبنا أن الدوق وعدد كبير من القادة كانوا قد استولوا على الأبراج حتى شـرعوا بتسلق الآلة الحـربية، بل تنافسوا مع بعـضهم بعضًا في رفع سـلالم التسلق إلى الأسوار التي كانوا مـزودين بها بشكل جيد.

❑ وتبع الدوق غود فـري على الفور كل من كـونت فلاندرز ودوق نورمانـدي وتانكرد الشجـاع الذي هو محارب جـدير بالثناء من جـميع الجوانب، كما صعد مع هؤلاء كل من هيـبو الكبير، كونت القديس بول وبلدوين دي بورغ، وغـاسـتـون دي بارن، وغـاسـتـون دي بيـزريس، وجيراردي روزليون، وتوماس دي لا فير، أسقف برتون وكونت رينبولد من مدينـة أورانج ولودوفك مونكونز أسقـف مونتاغـيو وابنه لامـبرت، بالإضافة إلى آخرين كثر لا أتذكر أعدادهم ولا أسماءهم.

وحـالما رأى الدوق أن جمـيع هؤلاء الفرسـان قد دخلوا بسـلام، أرسل قسمًا منهم مع مـرافقة مناسبة لفتح الباب الشـمالي، حتى يتمكن الناس الذين كانوا ينتظرون في الخارج من الدخول إلى المدينة، وفتح هذا

الباب بالحال، واندفع الجيش كله بصورة فوضوية ودون نظام أو ترتيب.

حدث ذلك من الساعة التاسعة من يوم الجمعة.

ضم الدوق آنذاك والذين كانوا معه صفوف قواتهم، واندفعوا هنا وهناك خلال شوارع وساحات المدينة مستلين سيوفهم وبحماية دروعهم وخوذهم، وقتلوا جميع من صادفوا من الأعداء بصرف النظر عن العمر أو الحالة ودونما تمييز، قد انتشرت المذابح المخيفة في كل مكان، وتكدّست الرؤوس المقطوعة في كل ناحية بحيث تعذّر الانتقال على الفور من مكان لآخر إلا على جثث المقتولين، وكان القادة قد شقّوا في وقت سابق طريقًا لهم بواسطة مسالك متنوعة إلى مركز المدينة تقريبًا، وأحدثوا عندما تقدموا قتلاً لا يُوصف. وتبع موكبهم حشد من الناس متعطش لدماء الأعداء ومصمم تصميمًا كاملاً على إبادتهم.

وفي هذه الأثناء كان كونت طولوز والقادة الذين كانوا يحاربون معه في المنطقة المجاورة لقمة جبل صهيون، جاهلين تمامًا أنه تم الاستيلاء على المدينة وأن الانتصار كان حليفنا، لكن صرخات المسيحيين العالية التي أصدروها عندما دخلوا القدس، وصيحات الرعب التي ارتفعت عندما استمرت مذبحة الكفرة[1] جلبت الذعر للمدافعين في ذلك القطاع من المدينة واضطربوا لدى تفسير الجلبة الغريبة والصخب المشؤوم، وما لبث أن اكتشف الجميع أنه تم اقتحام المدينة بالقوة وأن فيالق المسيحيين قد دخلت إليها، فهجروا الأبراج والتحصينات بدون تأخير

---

(١) يعني المسلمين... رمتني بدائها وانسلّت.

وهربوا في اتجاهات مختلفة مصممين على النجاة فقط، ولجأت الأكثرية إلى القلعة لأنها كانت قريبة، أنزل الجيش الجسر بدون مقاومة، ورفع سلالمه إلى الأسوار، ودخل المدينة دون أدنى إعاقة من جانب العدو، وما إن أفسح المجال أمامه حتى تولى العساكر فتح الباب الجنوبي الذي كان الباب الأقرب إليهم، وسمحوا لبقية الناس بالدخول، وكان أن دخل إلى هنا كونت طولوز الشهير والشجاع بصحبة إيسورد، كونت ديا وريموند بيلي، ووليم دي سابران أسقف البارة وعدد كبير من النبلاء الآخرين لم يحفظ أي تاريخ أسماءهم وعددهم.

□ وطافت هذه القوات الموحدة والمدججة بالسلاح من رأسها إلى أخمص قدميها في كل مكان خلال وسط المدينة، وأحدثوا دمارًا مريعًا بتصميم مشترك، وواجه الذين نجوا من أعمال التخريب التي قام بها الدوق ورجاله، وهربوا إلى الأجزاء الأخرى من المدينة واعتقدوا أنهم قد نجوا بطريقة ما من الموت، واجهوا هذه المجموعة من المحاربين المسيحيين، وهكذا كان مثلهم مثل المستغيث من الرمضاء بالنار، ولقد كانت المجزرة التي اقترفت في كل مكان من المدينة مخيفة جدًّا، وكان سفك الدماء رهيبًا لدرجة عانى فيها حتى المنصورون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز.

□ كان القسم الأكبر من الناس قد التجأ إلى ساحة الهيكل لأنها واقعة في قسم منعزل من المدينة وكانت محمية حماية قوية بسور وأبراج وبوابات، إلا أن هروبهم إلى هناك لم ينقذهم، حيث تبعهم تانكرد على الفور بالجزء الأكبر من سائر الجيش، وشق طريقه إلى داخل الهيكل، ونقل معه حسب إحدى الروايات بعد مذبحة مخيفة كمية ضخمة من

الذهب والفضة والمجوهرات، هذا ومن المعتقد أنه أعاد هذه الكنوز سالمة بعد أن كان الصخب قد هدأ.

وعلم القادة الآخرون، بعد أن كانوا قد قَتلوا من واجهوه في الأجزاء المختلفة من المدينة، أن الكثيرين قد هربوا للالتجاء إلى الأروقة المقدسة للهيكل، ولذلك اندفعوا بالإجماع إلى هناك، ودخلت مجموعة كبيرة من الفرسان والرجالة قتلت جميع الذين كانوا قد التجأوا إلى هناك، ولم تُظهر أية شفقة لأي واحد منهم، وغُمِر المكان كله بدم الضحايا.

□ لقد كان بالفعل حكم اللَّه القويم الذي قضى على الذين دنّسوا حرم المسيح بطقوسهم الخرافية، وجعلوه مكانًا غريبًا بالنسبة لأهله المؤمنين أن يكفّروا عن خطاياهم بالموت وأن يطهروا الأروقة المقدسة بسفك دمائهم.

وبات من المحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع، فقد انتشرت أشلاء الجثث البشرية في كل مكان، وكانت الأرض ذاتها مغطاة بدم القتلى، ولم يكن مشهد الجثث التي فُصلت الرؤوس عنها والأضلاع المبتورة المتناثرة في جميع الاتجاهات هو وحده الذي أثار الرعب في كل من نظر إليها، فقد كان الأرهب من ذلك هو النظر إلى المنتصرين أنفسهم وهم ملطخون بالدم من رؤوسهم إلى أقدامهم، إنه منظر مشؤوم جلب الرعب لجميع من واجهوهم، ويروى أنه هلك داخل حرم الهيكل فقط قرابة عشرة آلاف من الكفرة، بالإضافة إلى القتلى المطروحين في كل مكان من المدينة في الشوارع والساحات حيث قُدِّر عددهم أنه كان مساويًا لعدد القتلى داخل حرم الهيكل.

❑وطاف بقية الجنود خلال المدينة بحثًا عن التعساء الباقين على قيد الحياة، والذين يمكن أن يكونوا مختبئين في مداخل ضيقة وطرق فرعية للنجاة من الموت، وسُحب هؤلاء على مرأى الجميع وذُبحوا كالأغنام، وتشكّل البعض في زمر، واقتحموا المنازل حيث قبضوا على أرباب الأسر وزوجاتهم وأطفالهم وجميع أسرهم، وقُتلت هذه الضحايا أو قُذفت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي... فتّش الحجاج المدينة بدقة قصوى، وقتلوا سكّانها بجرأة، وتغلغلوا إلى أكثر الأماكن عزلة وبعدًا، واقتحموا غرف الأعداء الخاصة جدًّا.

كان هنالك مسيحيون يعيشون في القدس، قد رأوا في تلك المدينة بطرس الناسك المبجل منذ أربع سنوات أو خمس مضت... وعندما تعرّف عليه هؤلاء الناس من جديد، أجلّوه كثيرًا واحترموه، لأنهم تذكّروا بامتنان قدومه الأول والصداقة التي رضي أن يكوّنها معهم، وشكروه بعمق على أنه أنجز المهمة بإخلاص وبشكل لا يعرف التعب وبدافع من التقوى التي كانوا حمّلوه إياها.

❑ وهكذا تنافس الناس، بشكل فردي وكامل، مع بعضهم البعض في إبداء مظاهر الحفاوة والتكريم من جميع الأنواع لبطرس الناسك، ونسبوا إليه فقط بعد الرب خلاصهم من العبودية القاسية التي كانوا قد تحمّلوها لسنوات طويلة، واسترجاع المدينة المقدسة إلى حريتها الأصيلة.

ورأى الزعماء من الضروري وقبل كل شيء أن يُنظفوا المدينة، وخاصة أقنية الهيكل خشية أن ينشأ وباء من الهواء المشبع بالنتانة من جثث القتلى، وفُوضت هذه المهمة على المقادسة المأسورين الذين على

الرغم من أنهم أُودِعوا السجون قد نجوْا بالمصادفة من الموت، لكن بما أن عددهم لم يكن كافيًا لإنجاز عمل كبير جدًّا من هذا القبيل بدون مساعدة لهم، فقد قُدّمت أجرة يومية للمقاتلين الفقراء من الجيش للمساعدة في تطهير المدينة دون تأخير.

ولكي تبقى ذكرى هذا الحدث العظيم محفوظة بشكل أفضل، صدر قرار عام لاقى موافقة وإقرارًا شاملين، قضى بأن يعتبر هذا اليوم يومًا مقدسًا، وأن يفرد عن باقي الأيام.

وفي هذه الأثناء أدرك الكفرة الذين كانوا قد هربوا إلى قلعة داود للنجاة من انتقام السيف، أن المسيحيين حققوا الآن ملكية تامة للمدينة، وأدركوا أنه لم يعد بإمكانهم تحمّل الحصار، ولهذا بحثوا عن كونت طولوز، الذي كان أقام في المنطقة المجاورة للبرج، وحصلوا على وعد منه بأن يحصلوا مع زوجاتهم وأبنائهم على خروج حر من المدينة وطريق آمن إلى عسقلان.

واظهر الذين كانوا قد تولوا العناية بتطهير المدينة، اجتهادًا كبيرًا وحماسة في العمل، وأُحرِقت بعض الجثث ودُفِن بعضها الآخر، وذلك حسب ما سمحت مقتضيات الزمن، وأُنجِز كل شيء بسرعة خلال بضعة أيام، وأعيدت المدينة إلى وضعها الأصلي من النظافة»[١].

أعينيَّ لا ترقيْ من العبرات صِلِي البُكَا في الآصال بالبكرات



(١) تاريخ الحروب الصليبية من ص(٤٣٣ ـ ٤٤٢).

ولله درّ الدكتور عدنان النحوي وهو يقول في «ملحمة فلسطين»:

وَثَبَ الكافرون وثبًا علينا ... وغَزانا من كل أُفْقٍ صعيد

والصليب المزعوم يُخفي هَوَى المجـ ... ـرم يُعليه جاهلٌ وحقودُ

يا نداء الأقصى وقدْ حَلّ فيه ... من أذى الكفر عُصبةٌ وجُنُودُ

أعملوا السيفَ في الرقاب فسالتْ ... أنهرٌ من دمٍ وسالتْ نجودُ

يا لَهَوْلِ الإجرامِ جُنَّتْ ليالٍ ... فزعًا منه واقشعرت جُلُودُ

أقبلي يا عصورُ هاتي صلاح الـ ... ـدين فالدار شوقها مشهود

لم تزل جذوةُ البطولة في الأ ... ـمة يرعى غطاءها التوحيدُ



* ما سقطت القدس وضاعت إلاّ بسقوط الأمة وضياعها:

الأسباب التي أدّت إلى سقوط القدس في أيدي الصليبيين وهل يعيد التاريخ نفسه؟

قال ابن خلدون: «الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء»(١) ويقول: «فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، وتُشَدّ إليها الركائب والرحال، وهو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول، والسوابق من القرون الأوَل، وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق.

يعيد التاريخ نفسه بصور أخرى وألوان أخرى.. ويتوقف فهم الحاضر على الرجوع للماضي. وأسباب ضياع الأمم تتكرر في تاريخ الإنسانية.. وفي هذا أعظم العبر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

إن سقوط بيت المقدس لم يأت فجأة دون تمهيدات وإرهاصات، ومن الطبيعي أنه استغرق وقتًا كافيًا لينخر السوس في جسد الأمة.

وها نحن أولاء نجمل طرفًا من الأسباب التي أدت إلى سقوط القدس بأيدي الصليبيين:

---

(١) مقدمة ابن خلدون (١/ ٢٩٢).

١ ـ ضعف الخلافة العباسية في بغداد وتمزقها:

يقول ابن كثير واصفًا أحوال الخلافة العباسية عام ٣٢٤هـ:

«وَهَى أمر الخلافة جدًّا، استقلّ نواب الأطراف ولم يبق للخليفة حكم في غير بغداد، وأما بقية الأطراف فالبصرة مع ابن رائق، وخوزستان إلى أبي عبد اللَّه البريدي، وأمر فارس إلى عماد الدولة ابن بويه، وكرمان مع أبي علي محمد بن إلياس بن اليسع، وبلاد الموصل والجزيرة وديار بكر ومضر وربيعة مع بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، وبلاد إفريقية[1] والمغرب في يد القائم بن المهدي الفاطمي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر الساماني، والبحرين وهجر واليمامة في يد أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي»[2].

هذا ما ذكره ابن كثير، ولقد وصلت الخلافة إلى أضعف مما وصفه، ولم تتعد سلطة الخليفة أحيانًا أبواب قصره الذي يسكن فيه، وأصبح الخلفاء ألعوبة بأيدي الخدم والمماليك الذين سرعان ما يترقّون إلى أمراء للجند. وأصبح الخلفاء في ذل وهوان.

❑ فالخليفة محمد بن أحمد الملقب بالقاهر باللَّه بعد أن عُزل لم يبق معه شيء من ملابسه سوى قطعة عباءة يلتف بها، وفي رجله قبقاب خشبي، ويدور على المساجد يسأل الناس!![3].

---

(١) أيْ: تونس.

(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ١٩٧).

(٣) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٢٤).

والخليفة ابن المعتز يهرب ويختفي عند أحد وجهاء بغداد «ابن الجصاص» ثم يعثر عليه فيقتل بعصر خصيتيه ويلف بكساء ويُسلم إلى أهله [١].

□والخليفة المستكفي يعطى راتب ٥٠٠٠ درهم من قبل المتسلط أحمد بن بويه الشيعي، ثم يُعزل بعد أن يُجرّ من عمامته وتسمل عيناه، ويسجن حتى الموت.

□وفي عهد المطيع للَّه أصبح الأمر كله لمعز الدولة البويهي، حيث تحوّلت الوظائف الكبرى في الدولة كالقضاء والشرطة والحسبة إلى أن تُشترى وتباع «أسلوب الضمان».

□والمتقي للَّه إبراهيم بن المقتدر تولى الخلافة والأمور مدبرة، وفتنة ابن رائق والبريدي أدّت إلى نهب دار الخلافة، وهرب المتقي وابنه إلى الموصل، وحكم البريدي بغداد، ثم جاء سيف الدولة الحمداني «الشيعي» إلى واسط فانهزم البريدي، ثم دخل توزون بغداد وعيّنه الخليفة «أمير الأمراء»، واضطر الخليفة للخروج من بغداد طالبًا المساعدة من إخشيد مصر، فنصحه الأخير بترك بغداد والمجيء إلى الشام أو مصر، ولكن الخليفة رفض ورجع إلى بغداد، وبمجرد وصوله قام القائد التركي «توزون» بانقلاب عليه وسمل عينيه.

□قال ابن كثير: «وفي هذه السنة ٣٣١هـ كثر الرفض ببغداد فنودي بها من ذكر أحدًا من الصحابة بسوء فقد برئت منه الذمة» [٢].

---

(١) «الكامل» لابن الأثير (٨/١٨).

(٢) «البداية والنهاية» (١١/٢١٨).

ولم يكن سوء الحال هذا مقصورًا على بغداد بل كان عامًّا. وتفشّتْ أنانية مفرطة، ولو أدّى ذلك إلى ضعف المسلمين:

□ ففي عام ٤٨٧ هـ قتل السلطان بركيارق عمّه «تكش» وغرّقه وقتل ولده معه[١].

وهذا رضوان بن تتش السلجوقي صاحب حلب قتل أخويه، واستعان بالباطنية؛ كل ذلك حرصًا على الملك[٢].

ومدينة الرها يتقاسمها أميران: ابن عطير، ونصر الدولة بن مروان، فما كان من ابن عطير إلا أن راسل ملك الروم «أرمانوس» وباعه حصّته بعشرين ألف دينار فدخل الروم البلد وملكوه وقتلوا المسلمين وخرّبوا المساجد[٣].

□ وفي عام ٤٢٦هـ جمع ابن وثاب النميري جمعًا كثيرًا من البدو واستنجد من بالرّها من الروم، وقصد بلد نصر بن مروان ونهب وأخرب[٤].

يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويُقال ساسة

ووصل هذا الوباء إلى الأندلس «فقد تملّك رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخًا أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين، فصار الأمر في غاية الأخلوقة والفضيحة»[٥]، وفي زحمة الفتن والهرج في قرطبة، قام أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر وتسوّر القصر ودعا إلى نفسه، فقال له بعض أهل قرطبة: «نخش عليك أن تُقتل في

---

(١) «الكامل» (٩/ ٢٣٩).

(٢) «الكامل» (١٠/ ٤٩٩).

(٣) «الكامل» (٩/ ٤١٣).

(٤) «الكامل» (٩/ ٤٤٣).

(٥) «الكامل» (٩/ ٢٨٢).

هذه الفتنة، فإن السعادة قد ولّتَ عنكـم، فقال: بايعوني اليوم واقتلوني غدًا»[١].

وبسـبب هذا التـمـزق الداخلي طـمع الكفـار النصـارى في بلاد المسلمين قبل مجيء الصليبيين بمائة وأربعين عامًا:

☐ ففي عام ٣٥١هـ هاجم الروم بلدة «عين زربْه» واسـتولوا عليها، وجمع قائدهم «الدمسـتق» المسلمين في المسجد الجامع، ومَن تخلّف عن المسجد قتلوه، ثم أمر مَن في المسجد بالرحيل حيث شاؤوا، فهاموا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون[٢].

وفي عام ٣٥٣هـ حاصـر الروم «المصيصة» وقاتلوا أهلهـا وأحرقوا أراضيها ورجعوا[٣].

وفي سنة ٣٥٨هـ دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحد ولا قاتله، وسـار إلى طرابلس وأحـرق البلد، ثـم إلى حـمص، ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهبًا وتخريبًا، وكان بحـلب «قرعويـه» غلام سيف الدولة «الشيعي»، وقد صانع الروم[٤].

وفي سنة ٣٥٩هـ تملّك الروم مدينـة أنطاكية بمساعـدة النصارى من جيـرانهم، وأخرجـوا أهلها من الأطـفال والعجـائز والمشايـخ، وأسروا الشباب والنساء[٥].

---

(١) «الكامل» (٩/ ٢٨٣).
(٢) «الكامل» (٨/ ٥٣٨).
(٣) المصدر السابق (٨/ ٥٥٢).
(٤) المصدر السابق (٨/ ٦٠٣).
(٥) «البداية والنهاية» (١١/ ٣٠١).

مثلما يحدث الآن كتب الحكام لأنفسهم تاريخًا مظلمًا لا يشرفهم ولا يُشرّف أمة تسكت عنهم ولا تنهاهم عن المنكر.

٢ ـ جشع كبار القوم وترفهم وشظف العيش وفقر عامة الناس من جانب آخر:

تجمّعت الأموال في يد حفنة قليلة لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا، وتركوا البلاد قاعًا صفصفًا يعانون شظف العيش بدون تأنيب ضمير أو حس.

فها هو سبكتكين الحاجب التركي مولى معز الدولة البويهي «قد ترك من الأموال شيئًا كثيرًا جدًّا، من ذلك ألف ألف دينار «مليون» وصندوقًا من الجوهر»[١] .

والأفضل بن أمير الجيوش الأرمني وزير الفاطميين الذي ضاعت القدس في أيامه: «ترك من الذهب والثياب والرقيق والخيل والمسك ما لا يعلم قدره إلا اللَّه»[٢] .

وعضد الدولة البويهي الشيعي يُنشئ بستانًا بلغت النفقة عليه وعلى سوْق الماء إليه خمسة آلاف ألف درهم.

والوزير بن كلّس عنده من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام.

□ ويصف ابن كثير جهاز وزواج ابنة السلطان ملكشاة عام ٤٨٠هـ فيقول: «في المحرم منها نقل جهاز ابنة السلطان إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي، غالبها أواني الذهب والفضة

(١) «البداية والنهاية» (١١/٣٠١).
(٢) «البداية والنهاية» (١٢/٢٠٢).

وعلى أربع وسبعين بغلة مجللة بالديباج الملكي»[١] .

في حين كان أكثر الأمة لا يجدون القوت الضروري.

▫ فقد نقل ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ٢١٩): في حوادث ٣٣١هـ: «وفيها غلت الأسعار حتى أكل الناس الكلاب ووقع البلاء في الناس».

وظهر العيّارون[٢] وأظهروا الفساد وأخذوا أموال الناس، وأُحرقت الدور.

وفي عام ٤٤٨هـ انقطعت الطرق لخوف النهب فغلت الأسعار وأكل الناس الميتة، واستغل التجار هذه الأوضاع، فاحتكروا المواد الغذائية، وباعوها في الأزمات، فقد باع رجل دارًا بعشرين رطل دقيق، وكان قد اشتراها من قبل بتسعمائة دينار، وبيعت البيضة بدينار[٣] .

▫ أما الوزراء فانظر إلى الوزير المهلبي «يبتاع له في ثلاثة أيام ورد بألف دينار، فرش به مجالسه وطرحه في بركة عظيمة»[٤] .

هذه حال الوزراء بينما نجد أن الفقيه المالكي عبد الوهاب التغلبي يغادر بغداد، متأسفًا عليها ويقول لمودّعيه: «لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية»، وفي ذلك يقول:

بغداد دار لأهل المال طيبة ... وللمفاليس دار الضنك والضيق

---

(١) «البداية والنهاية» (٦/ ٢١٩).

(٢) اللصوص.

(٣) «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٢/ ١٧).

(٤) «ضحى الإسلام» (١/ ١٠٤). مثلما حدث في أيامنا هذه أن يشتري مليونير فلسطيني يعيش في الكويت بقايا حطام سيارة ديانا بملايين الجنيهات، وأبناء دينه وبلده لا يجدون القوت الضروري في الخيام.

ظللت حيران أمشي في أزقتها كأنني مصحف في بيت زنديق[١]

وقد قال ابن بسام في «الذخيرة» عن هذا الفقيه المالكي: كان بقية الناس، ولسان أصحاب القياس.

▫ ولقد بلغ الفساد الاقتصادي أرذله عندما أقرّت الدولة مبدأ الضمان حتى وصل الأمر للضمان في القضاء والحسبة والشرطة.

«والضمان هو إعطاء الحق لبعض الأفراد بجمع الخراج من مدينة أو منطقة بكاملها لقاء مبلغ يؤدونه سلفًا للدولة، ولهم الفرق بين ما يجمعونه وبين ما يؤدونه، ويتولى الضامن جباية الخراج بمساعدة السلطة أو بدون ذلك أحيانًا»[٢] ، وهذا كان من أكبر أسباب خراب الدولة.

▫ يقول ابن خلدون: «اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، فإذا قعد الناس عن المعاش كسدت أسواق العمران، وخفّ ساكن القطر وخربت أمصاره»[٣] .

▫ ويقول: «ولا تحسبنّ الظلم إنما هو أخذ المال من يد مالكه من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعمّ من ذلك، فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغُصّاب الأموال على العموم ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران»[٤] .

---

(١) «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٣/ ٢٢١).

(٢) «أيعيد التاريخ نفسه» لمحمد العبدة ص(٢٠).

(٣) مقدمة ابن خلدون (٢/ ٧٤١).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٧٤٣).

٣ ـ ابتعاد العلماء عن قيادة الأمة التي تنتظر الخلاص على أيديهم إذا جاءها الضر عن طريق الأمراء:

* فالعلماء هم المقصودون بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

◻ قال المفسرون: ﴿وَأُولِي الأَمْرِ﴾: العلماء والأمراء، فلماذا لا يُعَلّمون الناس أن يرجعوا إليهم إذا حزبهم أمر أو ادلهمت مصيبة.

وإذا كان لبعض العلماء دور إيجابي في النصح أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهؤلاء قله إذا ما قيسوا بالأعداد الكبيرة من العلماء.

◻ يقول الشيخ رشيد رضا: «ثم رسخت السلطة الشخصية في زمن العباسيين، وجاراهم علماء الدين بعدما كان لعلماء السلف من الإنكار الشديد على الملوك والأمراء في زمن بني أمية وأوائل زمن العباسيين»[1].

◻ وقد يكون لسان حال بعض العلماء أو طلبة العلم: «إننا نبتعد عن الهرج والمرج، وعن التمرّغ في أوحال السياسة والانقلابات والصراعات حول الحكم، ونربي الأجيال على حب الإسلام، وننشر العلم حتى لا يندرس. وهذا هدف كبير لا شك في ذلك، وعمل جليل يستحق التفرّغ له، ولكن هذه الأجيال التي رُبّيت يجب أن يكون لها دور إيجابي بعدئذ في تصحيح الانحرافات، وقيادة الأمة».

قد يكون ضيق الحال الذي ابتُلي به كثير من طلبة العلم، أو خطّط له من قبل الحكّام سببًا لانزواء كثير منهم عن الحياة العامة، ولكن يبقى

---

(١) مجلة المنار (٤/ ٢٠٤).

السؤال: كيف يتسنّى لعالم أو طالب علم أن يعيش خالي البال، وأمته تتقاذفها الأهواء والفتن، وأهل البدع لهم صولة وجولة، والفساد السياسي والاقتصادي وصل إلى حد لا يُطاق؟ ثم لا يكون للعلماء حول ولا طول في ردّ هذا الطوفان.

لابد من الاعتراف أن من عوامل الانحلال والضعف الذي أصاب الأمة هو ابتعاد العلماء عن القيادة، وعن الحكم، وأصبح المثل الأعلى هو العالم الذي يبتعد عن السلطان، فهذه فكرة خاطئة إذا عُمّمت، فهناك علماء ربانيُّون يتولون التربية فهؤلاء من الأفضل ابتعادهم عن الحكم، أمّا أن يصبح الابتعاد هو المثل الأعلى فهذا من المصائب التي جرّت على المسلمين الضعف، وهل يتصور مسلم أن يجد أحد يكون أعلم وأتقى من رسول اللَّه ﷺ، وقد كان هو بنفسه قائد جيوش المسلمين في بدر والأحزاب وغيرها.

❑ ويقول ابن تيمية واصفًا هذه الحالة: وبسبب ضعف الفقهاء من العلم الكافي للسياسة العادلة، وقع انفصام في المجتمع الإسلامي فصار يُقال: الشرع والسياسة، هذا يدعو خصمه إلى الشرع، وهذا يدعوه إلى السياسة، والسبب تقصير هؤلاء في معرفة السنة[1].

كما صوّر أحد الشعراء هذا الفصام، وانشغال العلماء والأدباء عن السياسة، وكيف تركوا الخلفاء تحت رحمة الأتراك الظلمة القُساة، فقال يخاطب جماعة في مكة يبحثون في النحو والصرف:

أما تستحون اللَّه يا معدن النحوِ شغلهم بذا والناس في أعظم الشُّغلِ

(١) الفتاوى (٢٠/ ٣٩٣).

إمـامكمُ أضـحى قـتـيـلاً مـجندلاً وقد أصبح الإسلام مفـترق الشَّمْل
وأنتـم على الأشـعـار والنحـو عُـكّفًـا تصيحون بالأصوات في أحسن السبل[(١)]

◻ وكانت ثالثة الأثافي أن القـضاء الذي كان مؤسسة مسـتقلة بعيدة نوعًا ما عن تأثير الحكام، تحوّل في هذا العصر إلى نظام الضمان.

٤ ـ الباطنيون والإرهاب الداخلي:

من المصـائب الكبيـرة التي نزلت بالمسلمين في هذا العـصر وزادت الطين بلة ابتلاء الناس بـالباطنية الذين أشـاعوا الرعب في قلوب الناس، وغـدرهم وفـتكهم بالعلمـاء وولاة أهل السنة، فـقـتلوا الوزراء والملوك والعلماء في الأوقات الحرجة، وتحالفـوا مع أعداء الإسلام من الصليبيين والتتار، وهذه الصورة ليست بعيدة عما يقع الآن من تحالف الباطنيين مع الاستعمار الغربي واليهود كرهًا في أهل السنة، وفي لبنان ذاق أهل السنة الويلات منهم، وذاق الفلسطينيون الأمرّين، والقديانيـة والإسماعيلية في باكستان يتحالفون مع الغرب، والبهائيون يتحالفون مع اليهود.

والبـاطنية اسم يجـمع كل الفـرق التي ظاهرها الرفض، وباطنهـا الكفر المحض، كـالحشاشين أو القرامطة أو الخـرمية أو الإسماعـيلية، أو الدرزية أو النصـيرية، ومن يقـرأ الماضي تنجلى أمامـه صورة الحـاضر، حسن الصبّاح شيخ الإسماعيلية، وشيخ الجبل في بلاد الشام، والقرامطة وما فعلوه بالمسلمين حول الكعبة إلى آخر سلسلة الإجرام.

◻ يقول الأستاذ مـحمد كرد علي: «والغريب أن شيـعة جبل عاملة

---

(١) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٦).

كانوا من حزب الصليبيين على المسلمين إلا قليلاً، كما أن هوى الموارنة مع الصليبيين ويعملون عندهم أدلاء وتراجمة[١].

فبسبب هذه الصراعات الداخلية وفساد الباطنية لم يتمكن المسلمون في بغداد وغيرها من مساعدة إخوانهم في بلاد الشام حين دهمها الفرنجة والصليبيون، فحين وصل الصليبيون إلى القدس كان العالم الإسلامي يعيش بعيدًا عن هذه الأحداث كأن في أذنيه وقرًا كما يحدث الآن.

فبعد وصول الصليبيين إلى بلاد الشام، خرج القاضي أبو علي بن عمار صاحب طرابلس مسرعًا إلى بغداد مستنفرًا المسلمين لإنقاذ بلاد الشام، وخطب في مساجد بغداد داعيًا للجهاد، وتحمّس الناس وتأهبوا، ووعده السلطان بإرسال الجيوش، ولكن لم يتم شيء، ورجع القاضي إلى طرابلس، ويفاجأ بأن العبيديين «الفاطميين» أصحاب مصر قد استولوا على مدينته عوضًا عن مساعدته ضد الفرنجة[٢].

٥ ـ انتشار الفكر الشيعي والباطني في بلاد الإسلام.. وخيانة الفاطميين للقدس:

هل كان يتصور أن يصمد المسلمون أمام الصليبيين وقد تفشى الفكر الشيعي وانتشرت البدع، وقامت للمبتدعة الزنادقة دول:

فالعبيديون الفاطميون بمصر (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ). والبويهيون وقد تملكوا مقاليد الأمور في بغداد وأهانوا الخلفاء أسوأ إهانة، والقرامطة وما فعلوه بالحجيج سنة ٣١٧هـ بل وبأهل دمشق سنة ٣٦٠هـ فقد أوقعوا

---

(١) «خطط الشام» (٢/ ١٤).

(٢) «الكامل» (١٠/ ٤٥٢).

بأهلها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ومحاولتهم إضعاف الدولة العباسية، وبنو حمدان (٣١٧ ـ ٣٩٤هـ) بحلب، والأسديون في الحلة (٤٠٣ ـ ٥٤٥هـ): لم يكتفوا بإماراتهم بل شاركوا في أحداث الدولة العباسية، من إثارة الفتن على الخليفة.

❏ فهذا دبيس أميرهم يرغم على الجلاء عن الحلة فيذهب إلى الشام ويساعد الروم في حصار حلب على شرط أن يتملكها بعد الانتصار على المسلمين، ولكن الحملة تفشل ويعود دبيس إلى الحلة فيُقتل من قبل السلطان مسعود السلجوقي.

ولقد تعاون الأسديون مع أرسلان البساسيري الداعي إلى طاعة العبيدين في مصر، وقد كان مملوكًا تركيًّا من مماليك بهاء الدولة البويهي، ثم صار من القواد المشهورين، ثم إنه كاتب حكّام مصر ليكون عونًا لهم على أخذ بغداد وساعده في ذلك دبيس بن مزيد، وتنمّر البساسيري، ودخل بغداد وخطب في جامع المنصور للمستنصر العبيدي، وتلقاه أهل الكرخ الرافضة وسألوه أن يجتاز من عندهم، وأمر فأذّن بـ «حيّ على خير العمل» وذلك سنة ٤٥٠هـ ونهب دار الخلافة، ولم يطل الأمر بالبساسيري حتى جاء السلطان السلجوقي طغرل بك، ودخل بغداد وأرسل جيشًا قوامه ألف فارس لاحق البساسيري في الكوفة وما حولها واستطاع الظفر به وقتله.

❏ فالأسديون لتشيعهم ساعدوا هذا المارق، كما ساعدوا الروم ضد المسلمين[1].

---

(١) «الكامل» (٩/ ٦٤٨).

□ والصليحيون في اليمن (٤٢٩ ـ ٤٩٢) وخروج أميرهم علي بن محمد الصليحي بعد استيلائهم على اليمن وملكها سنة ٤٥٥هـ، خرج سنة ٤٥٩هـ لإخضاع الحجاز للدولة العبيدية فأراح اللَّه المسلمين من شره بقتله، وضعف أمرهم واستقلت زوجته بحكم اليمن سنة ٤٧١هـ، ويخاطبها المستنصر العبيدي بـ «الحرة السديدة».

*** الفاطميون زنادقة خونة:**

الفاطميون لا صلة لهم ببيت النبوة، والدولة الفاطمية هي دولة باطنية، وهذا رأي أكثر علماء الأمة الذين حققوا نسبهم وعلموا بواطنهم وأسرارهم.

□ وقد سأل الشريف ابن طباطبا ملكهم المعز العبيدي الذي فتح مصر عن نسبه، فسلّ سيفه، وقال: هذا نسبي، ونثر الذهب، وقال: هذا حسبي[1].

□ وصدق الشاعر عندما قال فيهم:

إنا سمعنا نسبًا منكرًا ... يُتلى على المنبر في الجامع

إن كنت فيما تدّعي صادقًا ... فاذكر أبًا بعد الأب الرابع

فهم أولاد ميمون القداح بن ديصان اليهودي.

□ قال أبو شامة عن عبيد اللَّه المهدي مؤسس الدولة الفاطمية: «كان زنديقًا خبيثًا عدوًّا للإسلام، متظاهرًا بالتشيع، حريصًا على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدثين والصالحين جماعة كثيرة»[2]

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٨٠).

(٢) «الروضتين في أخبار الدولتين» ص(٢٠١).

❑ والمعز الفاطمي هو الذي أمر بقتل شيخ علماء السنة بمصر أبي بكر بن النابلسي، وضُرب بالسياط، ثم سُلخ جلده، سلخه يهودي حتى قتله، فلعنة اللَّه على الظالمين.

ومن العلماء الذين قتلوا على أيديهم محمد بن الحبُلي قاضي مدينة برقة[١].

❑ ومنهم الإمام ابن البردون تلميذ أبي عثمان بن الحدّاد، قتله أبوعبيد اللَّه الشيعي، وقد قال له لما جُرّد للقتل: أترجعُ عن مذهبك؟ فقال: أعن الإسلام أرجع؟! ثم صُلِب[٢] ـ رحمه اللَّه ـ.

❑ ومنهم ابن خيرون الإمام أبو جعفر محمد بن خيرون المعافري، أمر عبيد اللَّه المهدي بأن يُداس حتى الموت، فقفز عليه الجنود السودان حتى مات، وذلك بسبب جهاده وبغضه لعبيد اللَّه وجنده[٣].

❑ قال الذهبي: وقد أجمع علماء المغرب على محاربة آل عبيد، لما شهدوه من الكفر الصراح الذي لا حيلة فيه، وقد رأيت في ذلك تواريخ عدة يصدق بعضها بعضًا، وخرج كثير من العلماء والعباد مع أبي يزيد الخارجي لقتال القائم بن عُبيد اللَّه، وقالوا: نكون مع أهل القبلة ضد من ليس من أهل القبلة[٤].

وخرّب الفاطميون القيروان سنة ٤٤٩هـ، وجلا علماؤها إلى الأقطار، ومات منهم كثير[٥]. وصلتهم بالقرامطة الملاحدة صلة أكيدة

(١) انظر «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٣٧٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢١٦).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢١٧).

(٤) «السير» (١٥/ ١٥٤).

(٥) الفكر السامي في تاريخ الفقة الإسلامي (٢/ ١٦٥) لمحمد بن الحسن الحجوي.

ودعوتهم دعوة واحدة.

☐ يقول ابن خلكان: «كان العاضد شديد التشيع متغاليًا في سبّ الصحابة، وإذا رأى سنّيًّا استحلّ دمه»[١].

☐ قال الإمام الشاطبي: أما الدجّالون فمنهم معد من العبيدية الذين ملكوا إفريقية، فقد حكى عنه أنه جعل المؤذن يقول: أشهد أن معدًا رسول اللَّه، فهمّ المسلمون بقتله «أي: المؤذن» ثم رفعوه إلى معد ليروا هل هذا عن أمره، فلما انتهى كلامه إليه قال: «اردد عليهم أذانهم لعنهم اللَّه»[٢].

☐ وفي حوادث ٤١٤هـ قام رجل من المصريين «العبيديين» بضرب الحجر الأسود بآلة ثقيلة، والسيف في يده الأخرى وهو يقول: «إلى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلي، فتمكن منه أحد الحجاج من اليمن فضربه بخنجر فقتله.

هذه حقيقتهم لا يؤمنون بالرسالات ولا بالأنبياء.

وكل الإرهاب الذي زرعه الحشاشون في العالم الإسلامي، إنما هو ثمرة من ثمار الدعوة الإسماعيلية العبيدية في مصر. وحسن الصبّاح زعيم قلعة «ألموت» الذي أرسل رجاله يقتلون العلماء والأمراء المجاهدين إنما تلقى الدعوة على أيدي أصحابها في مصر، والدروز في بلاد الشام من آثار دعوة الدولة العبيدية، وهم يؤلِّهون الحاكم العبيدي، وعلاقتهم بإسرائيل علاقة جيدة.

---

(١) «وفيات الأعيان» (٣/ ١١٠).

(٢) «الاعتصام» للشاطبي (٢/ ٩٧).

ولما اجتاحت إسرائيل لبنان عام ١٩٨٢ ووصلوا إلى بيرت قاوم المسلمون السنيون هذا الاجتياح بما لديهم من أسلحة، ولم يقاوم الدروز أبدًا ومعهم السلاح الجيد، ودخلت كتيبة من جيش إسرائيل إلى منطقة الشوف دون مقاومة، وفي مقابلة لشيخ الدروز محمد أبو شقرا مع صحفي أمريكي قال: «إن جيش الدفاع الإسرائيلي أخذ يعيد للدروز حقوقهم المغتصبة».

* وزراؤهم:

استعان العبيديون في شئون الحكم باليهود والنصارى وغلاة الشيعة ومنهم:

❑ يعقوب بن كلس اليهودي الأصل والوزير الأول في أيام العزيز، وجاء في صحبة المعز إلى مصر، وتحول من اليهودية إلى الإسماعيلية.

❑ وعيسى بن نسطورس النصراني الذي ضجّ المسلمون في مصر منه لمحاباته للنصارى، ومساعدته لليهود وإرساله منشا اليهودي نائبًا عنه إلى الشام.

❑ وفي عهد الحاكم عيّن الحسين بن جوهر قائدًا للقوّاد، وفوّض إليه تدبير المملكة، فعيّن نائبًا له فهد بن إبراهيم النصراني.

وتولى الوزارة أيضًا في عهد الحاكم: زرعة بن عيسى بن نسطورس، وصاعد بن عيسى بن نسطورس.

❑ وفي عهد المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ): تولى الوزارة صدقة بن يوسف الفلاحي وهو يهودي تحوّل إلى المذهب الإسماعيلي. ومن الوزراء المشهورين في عصره بدر الجمالي الأرمني الشيعي.

❏ وفي عهد المستعلى والآمر: تولى الوزارة الأفضل بن بدر الجمالي، وفي عهده تولى يهودي شؤون قصر أم الخليفة فاشتد نفوذه وأسند مناصب الدولة لليهود[١].

والأفضل هذا كان في أيامه نكبة القدس. وهو الذي عرض على الفرنجة الصليبيين عند وصولهم إلى أنطاكية «مقترحًا تقسيم الشام، فيكون شمال سورية من نصيب الفرنج، وتستولي مصر على فلسطين»[٢] ورفض الصليبيون.

❏ يصف الذهبي عموم جيوشهم بأنهم أهل شر وزعارة لا سيما من تزندق منهم.

وقد ذاق المسلمون منهم من القتل والنهب والسبي حتى أن أهل صور استنجدوا بنصارى الروم من ظلمهم وجورهم وأخذهم النساء من الحمامات والطرق[٣].

❏ وقد وصف ابن كثير ملوك الدولة العبيدية: بأنهم من أنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، وقد ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقلّ عندهم الصالحون من العلماء، وكثر بأرض الشام النصرانية، والدرزية والحشيشية، وتغلّب الفرنج على الساحل.

فهؤلاء الخونة الزنادقة ما دافعوا عن القدس لما حاصرها الصليبيون، وهرب قائد حاميتها أمير الجيوش الأفضل الجمالي وزير المستعلي وتركها

---

(١) «أخبار ملوك بني عُبيد» للصنهاجي ص(٧١).
(٢) «الوزارة والوزراء في العهد الفاطمي» للمنياوي ص(٢٢٦).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٤٦٨).

للفرنجة دون مقاومة تذكر.

❑ قال ابن خلكان معلقًا: «ولو كانت في يد الأرتقية «أمراء الشام من الأتراك» لكان أصلح للمسلمين»[١].

❑ وفي أيام نور الدين محمود زنكي كان وزيرهم «شاور» يستنجد بالصليبيين خوفًا على منصبه من ابن زنكي.

وعندما تملك صلاح الدين مصر، وانقطعت الدولة العبيدية، اتفق بقايا العبيدية على إرجاع الدولة، فراسلوا الفرنجة في صقلية يطلبون المساعدة، ولكن المؤامرة كُشفت وقُتل من تولى كبرها[٢].

❑ ومن آثار دعوتهم أن أمير حلب محمود بن صالح بن مرداس عندما أراد تحويل الخطبة لبني العباس والسلاجقة ـ في عهد السلطان ألب أرسلان ـ ويترك العبيديين رفض العامة في حلب هذا التحوّل، وحملوا أثاث المسجد، وقالوا: هذه حصر علي بن أبي طالب، فليأت أبو بكر بحصر يصلي عليها الناس؟!

ولما استقرّ لهم الأمر في دمشق أُذِّن في نواحيها بـ «حي على خير العمل»، وكتب سب الشيخين على أبواب الجوامع، ولم تزل كذلك حتى أزيلت زمن دولة الأتراك والأكراد[٣].

لو لم يكن لهؤلاء الباطنية: إلا قتلهم للصالحين لكفى.. وقبل احتلال الصليبيين للقدس، قتل الباطنية في مستهل رمضان ٤٨٥هـ في

---

(١) «وفيات الأعيان» (١/ ١٧٩).

(٢) «الكامل» (١١/ ٣٩٨).

(٣) «البداية والنهاية» (١١/ ٢٨٤).

اليوم العاشر الوزير نظام الملك.

وفي التاريخ عظة وعبرة.. أنه ما ضعف المسلمون إلا في عهود دول البدع والزنادقة، وكل هوان وذل حلّ بالقدس إنما هو من آثار البعد عن دين اللَّه عز وجل، وتفشي البدع..والواقع خير شاهد.

